الكتاب الأول

الفصل الأول

يتحدث عن إقليم أندلوثيا Andalucia، التى أطلق عليها القدماء اسم بيتيكا Betica، وكون غرناطة جزءًا منها.

منطقة بيتيكا التى ذاع صيتها على يد الكتاب القدامى هى نفسها التى سميت فيما بعد فانداليا Vandalia أو فاندلوثيا Vandalocia، نسبةً إلى جماعة يُسَمون الفَندال Vandalos(*) استوطنوها وأقاموا فيها إقطاعيات. كان هؤلاء ذوى أصول جرمانية، وقد قدموا إلى بلاد الغال – التى عُرِفت فيما بعد باسم فرنسا – مع القنصل فستيليكون Fstilicón، وذلك قبيل سنتين من إغارة الملك القوطى ألاريكو Alarico على روما فى عام ٤١٢ من ميلاد المسيح، وهو ما يوافق مرور ١٢٦٤ سنةً على تأسيس المدينة على يد رومولو .Rómulo حارب أولئك القوم، مدعومين بكل من أهالى بورغونيا Borgoña(**) وكذا أهالى درواس وسوييو(***) ، وهم جميعًا من الجرمانيين ، الفرانكونيين – وهم أهل مقاطعة فرانكونيا Franconia ممن استوطنوا بلاد الغال؛

(*) تعنى باللغة العربية الهمجيون أو المتوحشين. (المترجمة)

(**) مقاطعة بفرنسا. (المترجمة)

(***) أطلق على جميع من القبائل الجرمانية ، التى استوطنت المنطقة الكائنة ما بين أنهار الراين والدانوب والبة فى القرن الثالث الميلادى وقد قامت هذه الجموع بغزو بلاد الغال وجزء من إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى Rea Academia Española,Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II. pag. 1916.

واستطاعوا أن يطردوهم منها بقوة السلاح ليستولوا هم عليها وينهبوا خيراتها كما يحلو لهم، وأجبروا الفرانكونيين بذلك على العودة إلى منطقتهم الأصلية. عندما اكتفى الفرانكونيون بقطعة الأرض تلك، التى نطلق عليها بورغونيا، انتقل الفندال وأعوانهم الجرمانيون إلى مقاطعة أكيتانيا Aquitania فى ناربونا Narbona، وعاثوا فيها فساداً، فأخذوا فى تدمير أقاليمها وسرقتها وصولاً إلى جبال البرانس. ولكنهم عجزوا عن العبور إلى إسبانيا، حيث دافع أهلها عنها وأخذوا يحاربونهم وسط وعورة وخشونة تلك الجبال.

فى تلك الأثناء قام أحد قواد الإمبراطورية الرومانية ويدعى غارثيان Garcián بالإغارة على جزيرة بريطانيا - Bretaña مسقط رأس - وطغى فيها، لكن حكمه المستبد لم يدم طويلاً، حيث قتله جنود جيشه بأنفسهم ونصّبوا جنديًا خاصًا يدعى كونستانتينو Constantino إمبراطوراً عليهم، وقام هذا الأخير لاحقًا بالعبور إلى بلاد الغال ليقاتل بضراوة ضد الفندال والجرمانيين الذين كانوا قد استولوا عليها؛ ولكنه لم يتمكن من إخضاعهم قط واضطر فى النهاية إلى عقد سلام معهم، غير أنهم خدعوه عدة مرات تحت اسم السلام. كما أن هذا الإمبراطور بعث بقادته - الذين يسمون بالقضاة - إلى إسبانيا ليحكموا البلاد ويديروا شئونها باسمه؛ وقد تم استقبالهم بحفاوة بالغة ولم يرفض الانصياع لهم سوى الأخوين النبيلين الفارسين الباليناثيين ديندينو Dindino وبيرونيانو .Veroniano حيث هبوا - استناداً إلى ثرائهم وأصهارهم ذوى النفوذ - لتلبية نداء أونوريو Honorio الإمبراطور الشرعى للرومان، للوقوف إلى جانبه والحفاظ على ملكه. فقاوموا اندفاع الأعداء لفترة طويلة ومنعوهم من الدخول إلى إسبانيا عبر جبال البرانس. عندما رأى كونستانتينو مقدار مقاومة الأخوين، أرسل إليهم ابنه كونستانثيوConstancio، وهو راهب قد استعان به أبوه فى إدارة شئون المملكة، وبعث معه قبائل البيتيو- pitios(*) التى يُطلَق عليها فى مواضع أخرى

(*) نسبة إلى الإله أبوللو Apolo الذى يعتبر هازم الحية بيتون Piton. (المترجمة)

الأونوريون honoricianos؛ لأنها حاربت في بريطانيا تحت لواء الإمبراطور أونوريو، الذى تمكن من اختراق جبال البرانس بقوة السلاح، يرافقه الفندال وأتباعهم الجرمانيون - وكانوا آنذاك مسيطرين على مقاطعة أكيتانيا بأسرها كما أسلفنا. ودخل إلى إسبانيا واختلف مع الأخوين ديندينو وبيرونيانو وهزمهم وأجهز عليهم، ثم دمّر سائر أراضى البالينتيين.

وهكذا أصبح الطريق مفتوحًا أمام هؤلاء الأشخاص ، فعبرت أعداد كبيرة من الفندال والجرمانيين إلى إسبانيا؛ وأعملوا فى أهلها من القتل والإهانة والفظائع ما لم تشهده عين أو تسمع به أذن من قبل. حيث نهبوا مدينة أستورغا Astorga، وحاصروا مدينة طليطلة Toledo ثم أبادوا الإقليم بأسره إزاء عدم استطاعتهم اختراقها. ثم اقتربوا من نهر تاخو Tejo حتى وصلوا إلى مدينة لشبونة Isbonaلوحاصروها، بيد أنهم لم يتوقفوا عندها طويلاً لأن أهلها دفعوا إليهم أموالاً طائلة لكى يتركوها ويقصدوا مناطق أخرى. وهكذا فإنهم مع ما أحرزوه من انتصارات فى إسبانيا وبمرور الوقت، استقروا فى هذه المقاطعات ليضحوا سادةً عليها ويقتسموها فيما بينهم. أما لوسيتانيا Lusitania وهى البرتغال Portugal فقد استوطنتها بعض القبائل الجرمانية/ السويبو، بينما كانت غاليثيا Galicia وميريدا Mérida من نصيب بقية القبائل الجرمانية / الدرواس؛ وظل الفندال فى بيتيكا حيث امتدت سيطرتهم لاحقًا حتى إفريقيا.

هذا هو ما يسوقه أوسوريو Osorio وما يرويه البابا بيّو Pío بإسهاب فى تلخيصه لتأريخ بلوندو دى فورلى Blondo de Forli. وقد منح أولئك الفندال اسمًا جديدًا لبيتيكا، حيث أطلق عليها فيما بعد بانداليا أو باندلوثيا نسبةً إليهم، وهى التسمية التى حرفناها الآن إلى أندلوثيا Andalucia . وقد أكثر الكتاب الأفارقة من ذكر الفندال، وهم يلقبوهم بـ نيندلوس nindeluz، وهو اللقب الذى يطلقونه على قاطنى بيتيكا، كما يشمل كل ما امتلكه الفندال فى إفريقية. ونحن نسوقه للعلم: حيث سيطروا على الأرض الموجودة بين جبل مورينا Morena حتى البحر المتوسط

وموريتانيا Mauritanias وتينخيتانا Tingitana وثيسارينسى Cesariense، وجزءًا من أراضى نوميديا Nomidia وإفريقية Africa، وخاصةً ما يقع على مقربة من سواحل بحرنا.

قام الفندال بتدمير قرطاج Cartago، وذلك وفقًا لما ذكره الخوريّ (الجوهرى؟) Johori فى مؤلفه لوغا Loga، وكذلك محمد بن جوهر (جهور؟) Mahomete Aben Jouhor فى كتاب الجغرافيا Geográafica . على الرغم من أن كلمة نيندلوس أخذت فى الاندثار بين أهالى شمال إفريقية، فإنها ظلت محفوظة على الدوام فى إسبانيا، وأطلقت على كل من مسلمى ومسيحيى هذا الإقليم. لابد أن أذكر فى هذا المقام أن بعض الكتّاب العرب أطلقوا على الفندال - بغرض التحقير - نيندليث Nindelez، وهى لفظة مشتقة من ديليث Delez، وتعنى فى اللغة اللاتينية لدى العرب " شيء زائف لا يمكن الوثوق به"[٤]، وهكذا فهم ينسبون إليهم صفة الزيف. وإذا ما تدبرنا الأمر مليًا لوجدنا أن الجرائم والفظائع التى ارتكبها الفندال، وما أظهروه من قلة إيمان، وكثرة ما اقترفوه من شرور فى فرنسا وإسبانيا وإفريقيا، وعدم اكتراثهم بأى أمر مقدس أو إنسانى، قد حمل العرب الساخرين على منحهم ذاك اللقب الذى يحقرهم. وهم محقون فى ذلك بعض الشىء لأن الاختلاف بين التسميتين طفيف للغاية.

فيما بعد انتقل الفندال إلى إفريقية فى صحبة ملكهم خنسيريكو Genserico، وذلك لإغاثة بونيفاثيو Bonifacio فى حربه ضد سيسولفو Sisulfo؛ حينئذ قام القوط -الذين كانوا قد رفعوا ضده السلاح - باحتلال مقاطعة بيتيكا وبسطوا سيطرتهم عليها حتى مجىء العرب إلى إسبانيا وتدميرهم إياها؛ حيث رسخوا أساس إمبراطوريتهم وديانتهم فى قرطبة Córdoba، وجعلوا منها عاصمة بيتيكا أو فانداليا.

(٤) لا ندرى من أين جاء المؤلف بهذه المعلومة من ناحية أخرى فإن اللغة العربية لها أساليبها الخاصة فى التصغير والتحقير ، ومن ثم فليست هناك حاجة لاستعمال صيغ لاتينية . (المراجع)

ولكن إبان تدهور أحوال العرب فيها لاحقًا وتعدد ملوكهم وتضاؤل نفوذهم ، نظرًا لقتالهم مع أربعة وأربعين ملكًا مسيحيًا على مدار سبعمائة وثلاثة وسبعين عامًا، فقد انتهى بهم المآل إلى خسارة المدن والقرى والقلاع التى سيطروا عليها شيئًا فشيئًا ليدفعهم المسيحيون فى اتجاه ساحل البحر، حيث تقع آخر بقعة من مقاطعة بيتيكا ألا وهى مملكة غرناطة. وقد أعلى من شأن هذه المدينة وعمّرها المسلمون الفارون من أسلحة الأمراء المسيحيين، فازدهرت مدينة غرناطة العظيمة ذائعة الصيت وأثرى ملكها وازداد رعاياه، وكثر عنده السلاح والذخائر؛ ومن هنا نبعت قدرته على الصمود لأزمنة طويلة. لقد منحت هذه المدينة النبيلة المملكة اسمها، ولكن لم يغير ذلك من تسمية أهلها بالأندلوثيين أو نيندلوس، شأنهم شأن غيرهم من بقية سكان بيتيكا أو أندلوثيا - وهو اللقب الذى يطلقه عليهم الأفارقة حتى الآن.

الفصل الثانى

يتعلق بوصف مملكة غرناطة، وكيف بسط الملك المسلم أبو الحسن نفوذه عليها إبان حكم الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل لقشتالة وليون.

تقع مملكة غرناطة فى آخر ركن من مقاطعة بيتيكا يطل على البحر المتوسط كما أسلفنا الذكر، وكانت آخر ما تبقى للمسلمين – أعداء عقيدتنا المقدسة – فى إسبانيا. وهى أول موقع احتله العرب فى بداية مجيئهم إلينا، وقد أطلقوا على هذه البقعة بلاد الأندلس وتعنى بلغتنا الإسبانية أرض الأندلوثيين؛ بيد أن بعض القدامى لقبوها بمقاطعة إلبيريا Iliberia نسبةً إلى إحدى المدن الشهيرة بها آنذاك، والتى سنفرد لها ذكرًا فى هذا الكتاب.

كانت حدود هذه المملكة عندما تولى الملكان الكاثوليكيان فيرناندو وإيسابيل عرش قشتالة وليون بمشيئة الرب، كانت على النحو التالى:

تبدأ غربًا من الحدود البحرية الشرقية لمدينة جبل طارق ، التى أسماها العرب جبل الفتوح Gibel fetoh وتعنى جبل مقدمة الانتصارات، بدءًا من المكان الذى يطلق عليه أهل تلك الأراضى حاليًا تريس بيدراس Tres Piedras(*)، وهى تمتد لمسافة طويلة على سواحل المتوسط وصولاً إلى مملكة مرسية شرقًا، وتحيط بها بحار إيركوليو Hercúleo والأيبيرى Iberio وجزء من ساردو Sardoo الذى يقع غرب البحر المتوسط.

(*) أى الأحجار الثلاثة . (المترجمة)

تتاخم المملكة من جهة الشمال مواقع أخرى من أندلوثيا بسط الملكان الكاثوليكيان سيطرتهما عليها فى أزمنة ومعارك مختلفة مثل قرى كاستيّار Castellar، وخيمينا Gimena، وإسبيرا Espera، والصخرة Zara، وتورى الحكيم Torre el Haquín(*)، وإولبيرا Olvera، وبيّا مارتين Villa Martín، وكانيتى Cañete، وأرداليس Ardales، واستيبة Estepa، وبونتون دى دون غونثالو El Pontón de don Gonzalo، واللسانة Lucena، وقبرة Cabra، وباييثا Baena، وروتى Rute، ولوكى Luque، ومارتوس Martos، وتوريخيمينا .Torrejimena وهناك مدن مثل جيّان Jaén، ولاغوارديا la Guardia، وبيغالاخار Pegalajar، وتوريس خيمينا Torres Jimena، وبيلمار Belmar، وخودار Jôdar، وكيسادا .Quesada وإذا تقدمنا للأمام سنجدها تجاور مشارف كاثورلا Cazorla، وسفح جبل سيغورا Segura الذى يصلها بمملكة مرسية.

ضمت مملكة غرناطة آنذاك كل ما يقع ضمن هذا النطاق، وكان يدخل تحت حكم الملك المسلم. وقد حوت مدنًا وقرى احتلها الملكان الكاثوليكيان وجعلوها خطوط دفاعهما الحدودية وهى: أنتقيرة Antequera، وقلعة يحصب Alcalá la Real، وأرشدونة Archidona وغيرها مما لا يدخل الآن فى إطار مملكة غرناطة وإنما فى الجزء الآخر من أندلوثيا. بيد أن كل القرى والقلاع التى لم تكن ضمن التقسيم القديم لمدينتى قرطبة وإشبيلية دخلت قديمًا فى حدود مقاطعة أو مملكة إلبيريا (غرناطة)، وذلك وفقًا لما ذكره ابن رشيد(٥) فى كتابه المعنون " حدود أراضى إسبانيا وقدوم العرب إليها واحتلالها" Departimiento de las tierras de España, y entrada y conquista que los alárabes hicieron en ella والذى ألفه فى قرطبة بتكليف من الخليفة فى دمشق.

(*) أى برج الحكيم . (المترجمة)

(٥) يذكر سيمونيت فى كتابه عن وصف غرناطة، صفحة ٣٢، أن المؤلف العربى الذى أخذ عنه مارمول ما يقول هو الرازى . (المراجع)

الآن لنعد لاستكمال وصفنا لملكة غرناطة، حيث يخترقها من الغرب إلى الشرق جبلان أحدهما أكبر وأكثر ارتفاعًا ووعورة من الآخر. يقع أكبرهما باتجاه البحر المتوسط حيث يبدأ على مقربة من مدينة جبل طارق وهو يكوّن منطقة رندة الجبلية ويمتد بين مدينتى مالقة Malaga وأنتقيرة، حيث يوجد المنخفض والجزء الشرقى من المدينة على الجانب الأيمن؛ ثم يعرج بين بلش والحامة Alhama. فى هذا المحل ميناء يطلقون عليه صالحة Zalia أو Calha، نسبةً إلى قرية منيعة كانت توجد إلى جواره أنذاك من ناحية الشمال، تم إخلاؤها من قاطنيها بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان على تلك المملكة، وأسسوا فيها قلعةً أسفل الحصن القديم ، حيث اعتاد الجنود التمركز خلال أعوام طوال لتأمين ذاك المعبر. إلى وقتنا هذا يمكن مشاهدة جدران القلعة على يسار الطريق الفاصل بين بلش والحامة. ويتفرع من الجبل الأكبر سلسلة جبلية عند هذا الميناء باتجاه البحر يُطْلَق عليها أراضى تيخيدا Tejeda، لكثرة ما بها من أشجار التيخو – وهى أشجار تتصف بالاستقامة وطول الجذع كأشجار السرو، وأخشابها تشبه الصنوبر، وتستخدم كاملةً دونما حاجة إلى نشرها حيث تُغطى بها المنازل، كما تدخل فى العديد من الأمور الأخرى. إذا ما تتبعنا هذه السلسلة الجبلية نزولاً، حيث المناطق عالية الارتفاع وشديدة الوعورة، سنجد أنه يلاصقها من الجانب الأيمن جبل أخر أقل ارتفاعًا، وهو يسير بمحاذاتها وصولاً إلى البحر ويسمى جبل منتميس Bentomiz، نسبةً إلى قرية صغيرة كان قد أقامها فوقه العرب الأوائل الذين استعمروا إسبانيا وكذلك أحد أجيالهم اللاحقة كانوا يدعون بنى طُمى Beni Tomi. وهم كانوا مقيمين أيضًا فى إقليم الجزائر فى شمال إفريقيا، وقد فرضوا سطوتهم على تلك المدينة لأعوام طويلة. وقد استوطن العرب العديد من المواقع على طول جبل منتميس، وتمتعوا برغد العيش لاشتغالهم بتجارة الحرير والزبيب والتين واللوز. وهناك أيضًا صخرة عالية شديدة الوعورة باتجاه البحر تسمى جبل فيخينيانا، نسبةً إلى مكان يقع على مقربة منها وسوف نفرد له الذكر لاحقًا عندما نتناول الحملة التى شنها عليه السيد لويس دى ريكيسينيس، القائد العام لقشتالة. إذا ما عدنا أدراجنا إلى ميناء ثاها (صها؟) Zaha سنجد فى أعلى الجبل مرجًا جميلا من الأعشاب وغابات أشجار

الصنوبر أسماه العرب فحص الرعاية Hesfaaraaya ويعنى حقل الرعاة، وأطلق عليه أبناء جلدتنا سافارّايا .Safarraya. ما زال الجبل الأكبر يتابع امتداده تاركًا على يمينه مدينة المنكب Almuñécar على ساحل البحر وعلى يساره مدينة الحامة. كما أنه ينبثق منه جبل آخر أعلى مواقع غواخاراس Guájaras لا يقل وعورة وقسوة عن جبل فيخيانا Fixiana أو فيخينيانا Fexiniana؛ الذى كان مسرحًا لمعركةٍ لا تُنْسَى فى تلك الحرب. تحتل القوات البحرية هذا الموقع على ساحل البحر القرية والقلعة المنيعة المسماة شلوبانية Salobreña، وبعدها يصل الجبل إلى وادى ليكرين L.ecrín على يسار الوادى ذاته تقع غوطة غرناطة الفسيحة والخصبة، وعلى الجهة اليمنى توجد قرية موتريل Motril وأراضيها. ثم يعاود الجبل الارتفاع والعلو مواصلاً سيره باتجاه الشرق حيث نجد فى الجنوب جبال لانخارون Lanjarón وطاعة أورخيبا Órgiba، وفى الشمال مدينة غرناطة الشهيرة والعظيمة. انطلاقًا من هذه النقطة يُطْلَق على الجبل سيرا نيبادا " Sierra Nevada الجبل الجليدى" نظرًا لما يكسوه من ثلج على الدوام، وقد أسماه القدامى أوروسبيدا Orospeda وأطلق عليه العرب جبل شُلّيْر Xo-lair؛ تقع البشرات فى جانب الجبل الكائن باتجاه البحر، ويسميها ابن رشيد[٦] Aben Raxid أرض السيرغو tierras de Sirgo لكثرة الاشتغال فيها بتجارة الحرير. لقّب العرب هذه الأراضى الفاجرة Abujarra، وتعنى العربيدة أو الفاسقة[٧]؛ لأنه فى أعقاب

---

(٦) لعله يقصد ابن رشيد القيروانى (٣٩٠ – هـ ٤٥٦) صاحب كتاب العمدة، وصاحب البيتين الشهيرين:

مما يزهدنى فى أرض أندلس   أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخًا صورة الأسد

لابن رشيد مؤلفات منها "معالم التاريخ" و "ميزان العمل فى تاريخ الدول". (المراجع)

(٧) هناك أقوال متضاربة حول أصل تسمية البشرات، منها ما يقوله ميغيل دى لونا، وهو موريسكى قريب من الفترة الزمنية ومن الموقع الجغرافى، إن الاسم يعود إلى "إبراهيم أبو شرة"، (انظر ترجمتنا لكتاب كارو باروخا "مسلمو مملكة غرناطة" ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ٢٠٠٣) كان من الشائع آنذاك أن تنسب مدينة إلى مؤسسها . (المراجع)

استعمار العرب لإسبانيا - استناداً إلى ما سطّره كتابهم - قاتلهم المسيحيون عدة مرات على هذه الجبال الوعرة، وكلما بسط العرب سيطرتهم عليهم كانوا يشترطون أن يُتركوا على ديانتنا، بيد أنهم أخذوا فى الابتعاد عنها شيئًا فشيئًا، والدخول فى شعائر وطقوس عقيدة الغزاة. وقد دام اعتزازهم بصلابتهم وعدم إمكانية هزيمتهم فى جبالهم إلى وقتنا هذا.

يقول ابن رشيد، مبالغًا فى مقدار قوة إسبانيا: "هذه البلاد تحوطها ثلاثة أسوار منيعة حبتها إياها الطبيعة لحماية أهلها والدفاع عنهم. إلى الجنوب توجد جبال سيرغو شديدة الوعورة - والتى ظلت فى أيدى المسيحيين لفترة طويلة. وفى الشرق هناك جبال البرانس؛ وفى الشمال جبال أخرى لجأ إليها قاطنو الأرض هروبًا من نفوذ الرومان والقوط والعرب". إلى هنا ينتهى حديث ابن راشد.

على بعد تسعة فراسخ(*) إلى الجنوب من غرناطة، وفى السهول المنبسطة على سفح جبل شلير، توجد مدينة وادى آش Guadix فى الجزء الشمالى، تليها مدينة بسطة Baza على مسافة ثمانية فراسخ - فى الموضع الذى يُشكّل فيه الجبل الكبير واديًا يسمى وادى نهر المنصورة Almanzora، إذ يقطعه نهر يحمل الاسم عينه. وعلى الجانب الأيمن تقع مدينة ألمرية، التى نافست غرناطة لبعض الوقت فى الثروات وتعداد السكان. ينبع من الجبل الأكبر عدة أفرع تصب فى البحر، وتحمل أسماء المدن التى تعبر خلالها مثل غادور Gádor وفيلابريس Filabres وغيرهما الكثير. على الرغم من فقدان الجبل الرئيس لعلوه عند نهر المنصورة، فهو يعاود ارتفاعه ومسيرته - ولكن يقل طوله. بعد أن يغادر مدينتى بيرا Vera وموخاكار Mojácar الكائنتين على الساحل يشرع فى التوغل داخل مملكة مرسية، وهو الموضع الذى سنتركه فيه لأن استكمال الوصف لن يضيف جديداً إلى ما نرمى إليه فى كتابنا هذا.

(*) الفرسخ هو مقياس طول يعادل ثلاثة أميال، أو ما يوازى ٥٥٥٥ متر و ٥٥ سنتيمتر. (المترجمة)

كل هذه الجبال التى تحدثنا عنها، وما ينبثق عنه من جبال أخرى، تتميز جميعها بشدة الوعورة. غالبية أحضان هذه الجبال وسفوحها آهلة بالسكان - الذين يمتلكون أراضى شاسعة شديدة الخصوبة ووفرة فى الأعشاب لتربية الماشية، خاصةً فى السهول المنخفضة بين أجزاء الجبل الأكبر المرتفعة؛ والتى ينبع منها العديد من عيون الماء البارد، الذى يسيل فى الأودية والشقوق، وتمتلئ ضفافها بالأشجار الكثيفة من كل صنف ونوع. وهى تنقسم فيما بعد إلى أنهار مختلفة، يجرى بعضها نحو البحر ويسيل الآخر باتجاه الشمال. كَثُرَت لدى المسلمين وانتشرت فى جميع أنحاء المناطق العامرة أناس أثرت من تجارة الماشية وإنتاج الحرير، وهما مصدرا الرزق الرئيسان فى تلك الأراضى.

يقع الجبل الأصغر فى الشمال متاخمًا لما نسميه الآن أندلوثيا. إنه جبل إيورة Illora الذى لقبه العرب بارباندارا Barbandara، ولا تمتاز تضاريسه بالوعورة الشديدة كسابقه الذى أسلفنا ذكره. ويوجد به العديد من القرى والقلاع الحصينة التى استخدمها ملوك غرناطة لفترات طويلة فى التصدى للمسيحيين؛ وأرضها مناسبة جداً للزراعة، حيث تُنْتَج فيها كميات وفيرة من القمح؛ وذلك لأنها تتشقق عدة مرات، مكونةً أودية وربوات ومنخفضات يمكن زراعتها كلها بالمحراث. وهكذا يواصل الجبل مسيرته فى نفس مواضع الجبل الأكبر - من الغرب إلى الشرق - ولكن بأسماء مختلفة، ليكتمل إعمار ما يحويه من قرى وقلاع. بين هذين الجبلين تتواجد أصول النبلاء فى مملكة غرناطة وذلك فى مدن رندة، وأنتقيرة ، والحامة ، ولوشة، وغرناطة، ووادى آش، وبسطة؛ وعلى ساحل البحر هناك مدن ساحلية أخرى مثل مربلة Marbella، ومالقة، وبلش، وألمنكب، وألمرية، وموخاكار، وبيرة، وهى كلها مسقط رأسٍ العديد من الفرسان والنبلاء الذين تعود أصولهم إلى الغزاة؛ وقد أجزل الملكان الكاثوليكيان لهم العطاء نظير ما أدوه من خدمات. تتضمن هذه المملكة ثلاثة بلدان أخرى تحمل أسماء مدن هى: أوخيخار Ugíjar، وكوبدا Cobda فى البشرات، وبورشينا Purchena فى وادى نهر المنصورة - وهى أقل من سابقتيها فى تعداد السكان. هذا بوجه عام ما يمكننا قوله عن مملكة غرناطة؛ فيما بعد سنعود من جديد إلى الوصف بتحديد أكثر للأماكن التى سنتطرق إليها فى غمار الأحداث.

الفصل الثالث

ويتناول مدينة إلبيريا القديمة التى كانت موجودة فى مملكة غرناطة.

تقع مدينة إلبيريا القديمة، التى أشار إليها بعض الكتاب القدامى - كما سنقص عليكم لاحقًا - فى مقاطعة بيتيكا. يتحدث ابن رشيد عن هذه المقاطعة - فى كتابه الذى أخبرنا أنه قد ألفه فى قرطبة - ويوردها على النحو التالى: "إلبيريا غير أن البعض يقرؤونها إيليبيريا بتشديد كسر الألف فى اللغة العربية، فكثيراً ما يُقْرَأ حرف e على أنه i، وحرف o على أنه u؛ نظراً للاختلاف الطفيف بينها فى الخصائص والمواضع التى ترد فيها؛ كما هو الحال أيضًا فى العبرية التى تفرق بين حروف العلة بوضع نقطة أو اثنتين فى المكان نفسه وحسب). وأخيراً فان ابن رشيد يقول: "إلبيريا مدينة جميلة تتميز بالثراء، لغزارة إنتاجها من الحرير الذى يخرج منها إلى سائر أنحاء إسبانيا. ويفصلها عن قرطبة ستون ألف قدم باتجاه الجنوب، وتبعد ستة آلاف قدم إلى الشمال من جبل إيلادا[8] Helada؛ ويدخل ضمن إطارها القلاع التالية: جيّان وبياسة - حيث يُشْغَل السجاد الفاخر - ولوشة وألمرية وغرناطة - التى أطلق عليها قديمًا مدينة اليهود لأن سكانها كانوا من اليهود، وهى أقدم بلدان إلبيريا. ويعبر فى منتصفها نهر سالون Salón الذى ينبع من جبل الريان[9] Arrayán، وتتخلل رماله

(٨) ربما يقصد جبل الثلج أو جبل شُلير او سيرا نيبادا. (المراجع)

(٩) اللفظ ينطق "الريحان" أيضاً. (المراجع)

ذرات من الذهب الخالص. وينضم إليه لاحقًا نهر يفوقه حجماً ويدعى سينخيلو Singilo وينبع من جبل الثلج. فى تلك الناحية توجد قلعة غزالة Gacela، والتى لن يعثر المرء على مكان يشبه مدينة دمشق Damasco فى بهائها وأبهتها سواها. وتحتوى أركانها على أحجار نفيسة من الرخام بيضاء وسوداء وأخرى تشوبها ألوان مختلفة." هنا ينتهى كلام ابن رشيد. وهو ما نستنبط منه أن اسم غزالة كان قد أُطلِق فى وقت ما على القصبات القديمة فى مدينة غرناطة، والتى سكنها العرب دونما شك، وكانت أول ما أسسوه فى هذه المدينة - التى سنذكر لاحقًا أننا اكتشفنا أنها قد سُمِّيت أيضًا بحصن الرمَّان[١٠] .Hizna Román . تلك الأسباب تدفعنا لأن ندرك جيدًا أن مدينة إلبيريا القديمة كانت بالقرب من ضفاف نهر كوبيلا Cubila الذى يجرى عند سفح الجبل الذى يسميه المحدثون جبل إلبيرا Elvira، وذلك من جهة الشمال حيث رأينا العديد من آثار وبقايا مبانى بالغة القدم. وقد أنهك سكان البقاع المجاورة أنفسهم فى البحث دون جدوى، ظنًا منهم فى وجود كنوز، وقد عثروا هناك بالفعل على ميداليات قديمة للغاية تعود إلى عصر الوثنيين. أكثر ما يدلل على صحة هذا الأمر أن المسافة من ذاك المكان إلى قرطبة وجبل الثلج هى عينها التى أوردها ابن رشيد[١١].

وأخيرًا فقد كانت إلبيريا مدينة عامرة بالسكان، وهى رأس الأسقفية. وكان القديس سيسيليو San Cecilio هو أسقف الكنيسة الأولى لها؛ وتحتفل اليوم كاتدرائية مدينة غرناطة بعيده. ويُرجع عقد المجمع الدينى الإلبيرى الذى يرأسه بومبونيو ميلا Pomponio Mela فى هذه المدينة عنه فى بلدة إيبيريا Iberia الكائنة بمدينة قطالونية، والتى تسمى حاليًا كوليبرى Collbre. من يسمون هذه المدينة إيليبريا Eliberia يقولون إن أساسها وضعته إيليبريا Eliberia ابنة إسبان Ispan،

(١٠) الجدير بالذكر إن لفظ "غرانادا" فى الإسبانية معناه "الرمانة" (المراجع)

(١١) يستند المؤلف إلى دقة وصف ابن رشيد للأماكن لكى يصدق روايته. (المراجع)

وإنها أطلقت عليها اسمها؛ وهو ما لا أعارضه للسهولة التى يمكن بها استبدال ذلك الحرف الأول خلال تلك القرون الطويلة. إضافةً إلى أننا لو وضعنا فى اعتبارنا أسماء المدن التى ازدهرت آنذاك فى إسبانيا، والتى زودنا بها تيتو ليفيو وغيره من الكتّاب القدامى، لوجدنا معظمها يبدأ بحرف "إى" لوهو أول حرف فى اسم إسبان الذى عمَّر هذه البقعة؛ كما هو الحال مع إليتورخى Iliturgi، إليردة Ilerda، إليخيتا Ile-gita، إليبا Ilipa، إلوثيا Ilucia، إيبيرة Ibera وغيرها الكثير. وكذلك فإن أسماء مدن إفريقية الرئيسة تبدأ جميعها بحرف "تى" T . وما برح العديد منها يحتفظ بتسميته القديمة مثل تافتانا Taftana، تاكوليت Taculet، تاغاوست Tagaost، تارودانت Tarodant، تاثاروت Tazarot، تاماروكس Tamarrocx وغيرها الكثير. هذا ويُطلَق على اللغة الإفريقية القديمة تامازيغت Tamazegt. ويسميها المسلمون "لسان النبلاء" فى اللغة العربية ويطلقون عليها كَلام أماريك (أمازيغ؟) quelem amaric على أساس أن التاء T صفة، لأنه الحرف الأول من اسم أول من عَمَّر أرضهم وهو توت Tut حفيد نوح.

نعود إلى الحديث عن إلبيريا، فنقول إن ذلك الكاتب العربى ذكر أن الوثنيين – الذين يسمونهم بالجاهليين Gehela – قد دمروا تلك المدينة قبل احتلال العرب لإسبانيا؛ وأن الفندال قد رفعوا من قدرها وكانت مدينة مزدهرة فى عصرهم. وقد فرض العرب سطوتهم عليها بقوة السلاح، فخربوها ودمروا جزءًا كبيرًا منها. وأخيرًا كانوا هم من أبادوها عن بكرة أبيها، عندما نقلوا من بقى من سكانها إلى مدينة غرناطة – التى سيرد ذكرها لاحقًا – لكننا فقط ننبه القارئ إلى أن إلبيرة هو اسم محرف بلسان العوام من أبناء جلدتنا. حيث أطلق العرب على الجبل الذى يحوى مدينة إلبيريا تلك جبل البيرة Gebel Elbeira(*)، وتعنى التسمية جبل غير ذى نفع أو قليل

(*) لفظ مشتق من البوار، وذلك للسبب المذكور آنفًا. (المترجمة)

الثمر؛ لأنه يفتقر إلى الماء والحطب وحتى العشب. وقد لقّبه آخرون بجبل الأمراء؛ لأنه فى أحد جوانبه الكائنة على مقربة من مكان يسمى الطُّرفى Atarfe، أقام كل من الأمير خوان Juan وابن أخيه – الأمير بدرو Pedro حفيد الملك ألفونسو الحكيم Alonso el Sabio – معسكرهما، وقد هزمهما أودريلان Odrilán أو عثمان[١٢] - Hozmín قائد جيش اسماعيل Ismael ملك غرناطة؛ وأوقعهما فى فخ وأجهز عليهما فى عام ١٣٢٠ من ميلاد المسيح.

فى أعقاب إخلاء إلبيريا من سكانها، لم يبق قائمًا فيها سوى القلعة وكذا بعض الأحياء على ضفة النهر، وقد منح المسلمون حيازتها إلى أقربائهم أومن ذوى الاعتبار. وقد عرض علينا موريسكى، كان حاضرًا فى غرناطة عام ١٥٧١، وثيقتين لتنصيب حاكم تلك القلعة – ترجع ملكيتها إلى أجداده. وهما مكتوبتان على ورق سميك يشبه ورق القش، تم صقله جيداً وألوانه لامعة وعليه حروف كبيرة من الذهب. ولقد استمتعنا حقًا برؤيتهما، وبالأسلوب الذى اتبعه أولئك الملوك عند منحهم للامتيازات. ظل هذا الحصن قائمًا على مدى أزمنة طوال حتى هدمه الملكان الكاثوليكيان أثناء توغلهما فى الغوطة. ما زال ممكنًا رؤية حيين هناك إلى جوار الجسر، يطلق عليهما بينوس دى لابوينتى[*] .Pinos de la Puente

---

(١٢) هو أبو سعيد عثمان بن العلاء شيخ الغزاة على عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل الذى انتصر على قوات قشتالة التى كانت تدعمها فرقة من المتطوعة الإنجليز، عند هضبة إالبيرة، وقد قتل فى المعركة دون بطره والدون خوان الوصيان على عرش ألفونس الحادى عشر. انظر محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام فى الأندلس" الجزء السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص. ١١٨، نقلا عن ابن الخطيب فى الإحاطة والمقرى فى نفح الطيب وابن خلدون (المراجع)

(*) تعنى باللغة العربية أشجار صنوبر الجسر. (المترجمة)

الفصل الرابع

يوضح موقع قرية اليهود التى ذكرها ابن رشيد.

وفقًا لما ساقه ابن رشيد، فان قرية اليهود كانت جزءًا من مدينة غرناطة، التى تقع فى السهل بين النهرين المشار إليهما، -وكان الأهالى يطلقون على سالون Salón حدرّة Darro وعلى سينخيلو Singilo شنيل -Genil وذلك من إبراشية الكنيسة الكبرى Iglesia Mayor حتى كنيسة القديس ماتيًا Santo Matía، حيث توجد أساسات صروح ضاربة فى القدم. ويبدو أن الحصن قد احتل الموقع الذى تشغله حاليًا الأبراج الحمراء Bermejas، حيث أنبأنا أهل المنطقة إن السور المنحدر من هذه الأبراج، وهو متهدم ومحطم فى عدة مواضع، هو أقدم بناء فى تلك المدينة. أما بقية ما كان يحيط بالقرية فلابد وأنه قد أخذ فى التلاشى مع تزايد أعداد السكان. بمقتضى ذلك تضحى احتمالية ما ساقه الكاتب المعاصر المحب للاستطلاع غاريباى Garibay فى مُؤَلَّفه تلخيص التاريخ Compendio historial قائمًا، حيث ذكر أن غرناطة كانت تسمى غارناط Garnat، وتعنى بالعبرية المهاجرة؛ لأنها عُمِّرت على يد اليهود الذين أمّوا إسبانيا فى شتاتهم الثانى من أورشليم. وفى هذا الصدد أرى أنه لزامًا أن يكون هؤلاء هم أهل نبوخذ نصر Nabucodonsor الذين جاءوا منذ سنوات طوال، ويرجع أصلهم إلى تيرو Tiro وسيدون Sidón فى فينيقية Fenicia وكانوا يُلَقَّبون بالماوروس ماوروفوروس Mauros mauroforos (*) . وقد استوطنوا هذه السواحل؛ وفى شواطئ

(*) أهالى موريتانيا القديمة. (المترجمة)

إفريقية سكنوا فى مدن ليبيا الفينيقية، ومنهم استمدت الموريتانيتان اسمى - تينخيلانيا Tingilania وثيساريتسى Cesariense. من الجائز أن تكون مدينة إيليبا Illlipa لقديمة قد أُسست على المرتفعات التى تكسو غرناطة التى أشار إليها تيتو ليفيو فى مُؤلَفه Quinto Ebro de la cuarta decada، عندما ذكر أن بوبليو كورنيلو اسثيبيون Publio Cornelio Escipión نائب القنصل الرومانى انتصر بالقرب منها على البرتغاليين الذين شرعوا فى سرقة خيرات هذه الأراضى، وأردى خمسة آلاف رجل منهم صرعى، واسترد ما كان فى حوزتهم من غنائم. وعندما بلغ مدينة إيليبا وضع الغنائم التى استردها أمام أبوابها ليتعرف أصحابها على ما سُرِقَ منهم، ثم قام برده إليهم. بموجب هذا يتعين أن يكون اليهود قد استوطنوا ما بين النهرين، وليس المرتفعات التى أذِنَ فيها الرب بتدمير تلك المدينة وغيرها الكثير من مدن هذه المملكة.

لم أتبين معلومات أكثر وضوحًا حول قرية اليهود تلك بخلاف ما أشرت إليه. أما ما يتعلق بالبلدان التى أقامها العرب والمسلمون فى مدينة غرناطة، وزمن نشأتها، والداعى إليها، وأسماء حصونها وأحيائها، وكيفية تنامى حجمها وعلو شأنها، فسوف نسوقه ونحن متثبتون منه وموقنون؛ لأننا سعينا إلى معرفته، واكتسبناه خلال روايات لقدامى الموريسكيين، وكذا باللجوء إلى كتابات عربية وشواهد منحوتة فى صخور قديمة، شاهدناها فى أنقاض المبانى العظيمة بتلك المدينة.

الفصل الخامس V

يتناول هو وما يليه من فصول وصف مدينة غرناطة وتأسيسها

إن الموقع الذى تشغله مدينة غرناطة على وضعه الحالى رائع، ويفوق فى قوة تحصينه ما يتضح لمن يتأمله من الخارج؛ لأنها كائنة فى عدد من الربوات شاهقة الارتفاع - كانت تشغلها فى نظرى مدينة إيليبا القديمة - وهى تنبثق من مرتفعات أخرى أكبر حجماً تطوّقها من ناحيتى الشرق والشمال. حيث تقع فى الأودية الموجودة بينها، وهى تمتد لمسافات شاسعة على سهل فسيح باتجاه الغرب، به غوطة منبسطة مربعة الشكل رائعة الجمال، تغض بالكثير من الغابات الوارفة والنباتات النضرة. حيث تتخللها كثير من القرى التى يسكنها أصحاب الحرف والمشتغلون بالزراعة، ويمكن مشاهدتها بالكامل من منازل المدينة.

خلف هذه الربوات يبزغ أحد الجبال من نهر المياه البيضاء Aguas Blancas، ويعرج بينها وبين غويخار Guéjar ثم يتجه نحو الشمال، ولكنه يتسمى بأسماء مختلفة. فيطلقون عليه فى بدايته جبل غويتى دى سانتيّانا Güete de Santillana، ثم جبل البيّازين، وفى نهايته كوغويّوس Cogollos وحصن اللوز .Hiznaleuz بحيث تكون المدينة محاطة من تلك الناحية بجبال حادة شديدة الوعورة تمتلئ بشقوق عديدة، ومن ناحية الجنوب بالجبل الأكبر والبشرات. لم يتسن للملوك المسيحيين محاصرتها قط سوى من ناحية الغوطة - التى لم يفرضوا سطوتهم عليها أكثر من مرة إلا بغرض قطع الأشجار والقضاء على زراعة القمح وكذا الغابات الكثيفة التى كانت قائمةً بها، وحتى يعرّضوا قاطنيها للمجاعة. كانت تلك المدينة على عهد المسلمين محاطة بأسوار

وبروج، بُنِيَت بقوالب الطوب وخليط من الجير والرمل، بها اثنتا عشرة بوابة توجد وسط قلاع تزخر بالأبواب والحوائط الحديدية. كلها مزدوجة ومجهزة بالصفائح الحديدية، ومحاطة بالخنادق والحفر من الخارج. ويسكن بداخلها، وفي المناطق الجبلية المتاخمة لها، أعدادٌ هائلةٌ من الجند، جعلتنا محقين في إدراجها ضمن أقوى المدن وأمنعها، بيد أنه لاحقًا تناقص مقدار الاعتناء بتحصينها وظل الأمر هكذا لأن الغزاة قد تمتعوا بالعيش في عصر ذهبي للسلام.

أول ما بُنِي في تلك المدينة الشهيرة - كما أسلفنا في الفصل السابق - كان ما أطلق عليه رشيد قرية[١٣] اليهود، والتي لابد وأنها كانت تقع إلى جوار إيليبا القديمة، كما ذكّرنا فيما سبق. بعد ذلك عندما سيطر طارق بن زياد[١٤] Tarique Aben Zara على إسبانيا، شرع نفر من العرب الذين قدموا بصحبته من دمشق في بناء قلعة قوية على مقربة من الدلتا، وذلك فوق ربوة تقع حاليًا داخل المدينة تدعى ربوة القصبة القديمة Alcazaba. وقد أطلقوا على تلك القلعة حصن الرمان Hizna Romeán وتعني قلعة الرمّان، فلابد أنه كانت هناك أشجار رمّان استقوا منها تلك التسمية. يشهد على ذلك الكتابات والوثائق القديمة التي عثرنا عليها في تلك المدينة، وهي تخص ممتلكات كائنة في نطاقها. على الرغم من أن القلعة أضحت مفككة ومهدمة من جهة المدينة - وهو ما يُعْزَى إلى عدد المنازل المأهولة الذي تزايد باضطراد، فان ما يقع منها خارج المدينة ما برحت أسواره قائمة، ويطلق المسلمون عليها القصبة القديمة Alcazaba cádima،. كما أن أحد الموريسكيين قد أطلعنا على حروف عربية مكتوبة على أحد قوالب الطوب المكونة لهذا الجدار القديم[١٥] ، ويبدو أنها قد حُفِرَت بقطعة حديد

(١٣) ربما يقصد حي اليهود، فمبلغ علمنا أن اليهود لم يكونوا يسكنون قرى منفصلة (المراجع)

(١٤) واضح عدم مطابقة الحروف الإسبانية للاسم العربي. هذا ما يصعب التحقق من أسماء شخصيات أقل شهرة (المراجع)

(١٥) لابد أن ذلك حدث منذ فترة طويلة، فقد حظرت السلطات التحدث باللغة العربية والكتابة بها، ومن ثم كان مجرد العلم بها يجعل الشخص موضع ارتياب (المراجع)

أو بعصا مدببة، حين كان خليط الرمل والجير والماء لا يزال لينًا لم يشتد بعد؛ بينما كانوا هم آنذاك يكسونه بالطوب. وهى تُظْهِر كلمات من القرآن لتدلل على إنشائها فى عصر أول من وصل من المسلمين وليس قبل ذلك. وقد شَهِدَ لنا الرجل عينه أنه قد مر عليه أربعون عامًا، منذ أن شاهد أحرفًا عربيةً منحوتةً على صخرةٍ قديمةٍ كانت تغطى فتحة الجب الخاص بكنيسة القديس خوسيبى San Jusepe، تشرح كيفية حفر أهالى حصن الرمّان لذاك البئر من نقود الصدقات، وذلك لخدمة المرابطين فى ذلك المسجد؛ لأنه فى موقع هذه الكنيسة وتحت برجها القديم كان يوجد هناك رباط يسمى مسجد المرابطين Mezquit el Morabitín، وكان من أول ما أسسه العرب فى تلك الأرض – وموقعه خارج أسوار حصن الرمّان بعيداً عن نهر حدرّة، فى منتصف أحد جوانب الربوة– ونظراً للمشقة التى لاقاها المرابطون فى النزول حتى النهر للتزود بالمياه؛ لذا فقد اتفق الأهالى على إمدادهم بذاك البئر. وكان دييغو فوستيرو Diego Fustero رئيس خُدّام تلك الكنيسة قد أزال الصخرة ليبنى مأوى له فوق الجب ذاته.

وقد أخبرنا آخرون أن أحد كبار الموريسكيين يدعى الثغرى Zegrí كان قد أمر بنزع سائر اللافتات المكتوبة باللغة العربية فى البيازين والقصبة، وأنه قد أزال ذاك الحجر مع غيره، وذلك بمناسبة زيارة الإمبراطور كارلوس لمدينة غرناطة فى عام ١٥٢٦. تكفى تلك المقولة للدلالة على أن تلك القصبة كانت تُسَمى حصن الرمّان. وقد نما تعداد سكانها لتمتد باتجاه النهر، وفى سنة ١٠٠٦ من ميلاد المسيح كانت قد أُقيمت قصبة جديدة بين القصبة القديمة والنهر، ضمت ما يربو على أربعمائة منزل وكانت تدعى القصبة الجديدة .Alcazaba Gidid يُقَال إن أساس هذه البلدة الثانية كان قد وضعه أحد الأفارقة المنتمين إلى جبل بلش فى غمارة Gomera واسمه باديس بن حابوس Bedicí Aben Habuz، وقد أطلق عليها غزالة؛ وهو اسم أحد الحيوانات الموجودة فى إفريقية يتميز بتناسق أجزائه ورشاقته الفائقة، وهو دائمًا يسير فى حذر، ولا يشعر بالطمأنينة سوى فى قمم الجبال والمناطق العالية، التى يستكشف منها ما أمامه من أراضٍ ويفرض سيادته عليها، ويسميه الأفارقة غزال. هذا الرجل المحارب قد علمته خبرته حتمية توخى الحذر على الدوام لمن يرغب فى البقاء فى هذه الأراضى.

يضم إطار القصبة الجديدة ثلاثة أحياء، يبدو أن كلاً منها كان مسورًا على حدةً في أزمنة مختلفة، كما يحيط بها جميعًا سور رئيس. أولها وأكثرها ارتفاعًا موجود بجانب القصبة القديمة، في دائرة القديس ميغيل San Miguel، وتوجد به قصور باديس بن حبوس – عند بيت الديك – حيث يُشَاهَد برج صغير يعلوه فارس يرتدى الثياب الموريسكية، ويمتطى فرسًا أصيلاً حاملاً حربةً طويلةً، وشاهرًا درعًا فى يده. التمثال بأكمله من البرونز وهناك لافتة بعرض الدرع كُتِبَ عليها Calet el Bedicî Aben Habuz guidate habez Lindibuz ومعناها :" قال باديس بن حابوس أن هكذا تكون الأندلس". بما أن أية حركة طفيفة فى الهواء كانت تدفع الفرس لإدارة وجهه، فقد سماه الموريسكيون "ديك الريح"؛ أما المسيحيون فيلقبون ذاك البيت "بيت الديك". أما الحى الثانى فهو حى دائرة القديس يوسف San Josef كانت تتم فيه المقاولات والتعاقدات الكبرى، حيث صار يجمع مسجد المرابطين وكذا منازل التجار وأصحاب الحوانيت. ثالثها هو حى دائرة القديس خوان دى لوس رييس San Juan de los Reyes، وهى كنيسة أنشأها الملكان الكاثوليكيان فى محل مسجد كان المسلمون يدعونه مسجد التائبين mozchit el Teibin - والتسمية تعنى المسجد الخاص بمن دخلوا فى الإسلام(١٦)، وقد أطلقوا على الحى اسم كاوراتشة Cauracha، نسبةً إلى مغارة كائنة به كانت تبعد مسافة كبيرة تحت سطح الأرض، وكَوْرَة Caura باللغة العربية تعنى كهف. من هنا ألف البعض أسطورة مفادها أن سيدة تدعى ناطة Nata كانت تخبئ الخبز فى تلك المغارة – وهو المصدر الذى اشتُق منه اسم غرناطة؛ لأن غار gar معناها كهف أو شيء عميق. بمرور الزمن اتسعت بلدة القصبة الجديدة حتى بلغت نهر حدرّة نفسه، حيث أُقيم حى آخر جذاب وممتع للغاية يطلق عليه "الشجر"(١٧)

(١٦) المتتبع لترجمات مارمول للأسماء العربية يدرك إنه لم يكن ملمًا بلغة الضاد، وهذا سبب إضافى يجعل روايته محل نظر. (المراجع).

(١٧) يرى سيمونيت (فى "وصف غرناطة") أن الاسم تحريف للفظ Xacharia أى شجيرات أو مكان به شجر. (المراجع).

Haxariz وتعنى التسمية للهو والتسلية، وقد اشتهر كثيرًا فى قصائد الشعراء العرب، لما حواه من نافورات وبساتين وأشجار صغيرة داخل منازل قاطنيه الوجهاء. وهو يبدأ من حى القديس خوان دى لوس رييس ليمتد حتى نهر حدرّة - حيث توجد خورنية القديس بدرو San Pedro والقديس بابلو San Pablo - وينتهى عند دير عذراء النصر الذى يقع داخل نطاقه.

الفصل السادس VI

يستكمل وصف مدينة غرناطة وتأسيسها

كل هذه البلدان أحاط بها في زمن لاحق سور واحد، من الممكن رؤية بقاياه وآثاره في مواضع شتى بين مساكن المواطنين. من الخارج لا يزال السور الذى يصل باب وادى آش في أعلى الربوة نزولاً إلى باب إلبيرا قائماً. ود البعض الزعم أن إحاطة كل حي بسور على حدة، ودخولهم جميعاً تحت إطار سور رئيس - وهى الطريقة التى يوضع عليها القشر داخل الرمانة - وكون موقع القصبة القديمة على رأس الربوة، أدى إلى تسمية المدينة غرناطة. وهو أمر لا أقره أو أنفيه، رغم أنه يستحضر تشابه تكوين المدينة مع اسمها(١٨).

هذا وقد أُسس حى آخر أسفل بيت الديك وخارج أسوار القصبة على هيئة ضاحية سُمِيَت زناتى Cenete سكنها جيل من المسلمين الأفارقة يلقبون ببنى زناتة Beni Ceneta قصدوا إسبانيا ليعملوا مرتزقة فى الحروب، وقد استعان بهم الملوك المسلمون كحراس لحماية ذويهم، ومنحوهم تلك البقعة لكى يقطنوها، انطلاقًا من رغبتهم فى الاحتفاظ بهم على مقربة منهم - حيث تواجدت قصورهم عند بيت الديك. وهو مكان وعر، يمتد نزولاً على أحد جوانب الجبل حتى يصل إلى المنطقة المنبسطة. بعد ذلك هجر سكان إلبيريا المدينة نتيجةً للأضرار التى ألحقها القرطبيون بالذين ظلوا

(١٨) يشير مارمول إلى أن كلمة غرناطة - ونطقها بالإسبانية غرانادا التى تعنى كلمة رمانة فى اللغة العربية - ربما استوحت اسمها من أن تكوينها شبيه الشكل بالرمانة. (المراجع)

مكانهم، أو رغبةً فى تحسين أحوالهم بالانتقال إلى المدينة الجديدة، التى ازدهرت وأخذت فى النمو يومًا تلو الآخر. وكان جل ما فيها قريب الشبه للغاية من مدينة فاس التى أُنشئت قبل سنوات قلائل فى تنخيتانيا الموريتانية ، وأعلى شأنها الأدارسة – كما ذكرنا من قبل فى كتابنا عن إفريقيا[١٩] ، وقد استوطن الأشخاص النازحون منها ذلك السهل الذى يقع أسفل زناتة والجزء الكائن من الغوطة حتى الميدان الجديد plaza Nueva.

مع مرور الأعوام ملأت المنازل الرقعة التى باتت خاليةً مابين القصبة وحى اليهود، وكانت عبارة عن بساتين وغابات من الأشجار الكثيفة. بعد أن أضحى للمكان كيانه الخاص وتحول إلى مدينة، أحاطه الملوك بالأسوار والقلاع – وهو ما نشهده فى يومنا هذا، وكان يحوى أربعة عشر بابًا رئيسًا يستخدمهم السكان، بخلاف البابين الكائنين فى حى البيّازين. وقد حملت كلها أسماءً عربية، وإن كانت محرفة: الباب الأول والرئيس سُمِّى باب إلبيرة Bib Elbeira – ويقع فى الجزء الذى كانت تشغله مدينة إلبيريا فى جبل إلبيرة. إذا ما اتجهنا غربًا يقابلنا باب بُنيتة Bib Bonaita ويعنى باب العصور، والآن يُطلَق عليه باب القديس خيرونيمو San Jerónimo لأنه يفضى للطريق المؤدية إلى دير القديس خيرونيمو. يليه باب المارستان Bib el Marstán ويعنى باب مستشفى من لا يرجى علاجهم؛ وقد أسماه المسيحيون باب ألماثان Bib Almazán؛ لأنه كان يوجد مشفى لغير القابلين للعلاج فى المكان الذى يقوم فيه الآن القديس لاثارو Sant Lázaro.[٢٠] يتبعه باب (الرملة) Bibarrambla، ويحمل المعنى نفسه باللغة الإسبانية. ثم باب التوابين Bib Taubin أى باب الدبّاغين، ويعده باب العشار Bib La-cha بمعنى باب السمك، يعقبه باب أبو النجد Bib Abulnest الذى أُطلق عليه باب المجدولية Madalena، فباب لاوخار[٢١] Bib el Laujar ويُسمَّى حاليًا باب الحمراء

(١٩) يشير بالتأكيد إلى كتابه " وصف إفريقيا " (المراجع).

(٢٠) واضح أنه اسم لأحد المعالم، لكن مارمول لا يحدده (المراجع).

(٢١) جاء فى إحدى موسوعات مدن أندلوثيا الصغيرة أن الاسم تحريف للفظ "القصور" (المراجع)

Puerta de Alhambara أو باب شارع غمارة calle de los Gomeres، يأتى بعده باب وادى أش Bib Gued Aix. الباب التالى يدعى باب العظم Bib Adam، أما الآن فيطلق عليه باب البيّازين Albaicîn. يتبعه باب البنود Bib el Bonut ويُقْصَد به باب الرايات، نظرًا لأن الرايات كانت ترفع وترفرف على البرج الذى يعلوه عند اختيار ملك جديد أو أى أمر ذى شأن تشهده غرناطة. عندما نتوجه للأمام قليلاً يقابلنا ما كان يُدعَى باب البيز Beiz وقد تم هدمه، ويعنى اسمه باب العمل Trabajo أو العُمّال .Trabajadores يليه باب سيادة Bib Ceida، وقد ظل مغلقًا لأزمنة طويلة بموجب نبوءة لدى المسلمين مفادها أن خراب البيازين – وهو حى كبير للغاية سنأتى على ذكره لاحقًا – سوف يتم من خلاله. وقد أمر بفتحه بدرو دى ديثا Pedro de Deza رئيس محكمة غرناطة الملكية فى عام ١٥٧٣، الذى تقلّد فيما بعد منصب كاردينال كنيسة روما المقدسة. ثم باب العقبة Bib el Alacaba، ويُفْضِى إلى قطعة الأرض المعلقة التى تنحدر إلى الأسفل خارج أسوار القصبة.

أما حى البيازين هذا فقد بدأ يعمر بالسكان إبان حكم الملك فيرناندو القديس Hernando el Santo لقشتالة حوالى سنة ١٢٢٧ من ميلاد المسيح. وقد استوطنه المسلمون الذين هجروا مدينتى بياسة Baeza وأبدة Ubeda يقصدون العيش فى غرناطة لأنهم لم يكونوا ضمن مدجنى الملك[٢٢]، وقد رحب بهم ابن هود Aben Hut ملك المدينة تلك ومنحهم هذه البقعة ليسكنوها. لقد أمّها أولاً قاطنو بياسة، ثم لحق بهم أهالى أبدة بعد مرور سبعة أعوام. تحمل المدينة اسم سكانها الأوائل، وقد تنامى حجمها حيث باتت وجهة الأشخاص الفارين من أسلحة الأمراء المسيحيين من كل صوب وحدب، إلى الدرجة التى مكنتها من المنافسة على الثروات وعراقة الأبنية وعقود المقاولات مع أهالى غرناطة القدامى.

---

(٢٢) أى لا تنطبق عليهم لائحة المدجنين التى كانت تضمن للمسلم المقيم فى الممالك المسيحية حرية ممارسة شعائر الإسلام. (المراجع)

الفصل السابع

يستكمل وصف غرناطة ويتناول ملك بنى الأحمر وما شيدوه

فى أعقاب الحروب الطاحنة التى نشبت بين المسلمين فى إسبانيا، ظهر العديد من القادة الثائرين ممن أضفوا على أنفسهم ألقاب الملوك ونجحوا فى مضايقة غيرهم أكثر من اكتسابهم للنفوذ. كان من بينهم رجل يدعى محمد أبو سعيد بن الأحمر Mahamete Abuzeid Aben Alahmar – وقد أفردنا له ذكراً فى كتابنا "تاريخ إفريقية"– بسط سيطرته على غرناطة بأسرها، وتولت ذريته الحكم فيها حتى عام ١٤٩٢. وقد امتلك أولئك الملوك الثروات والنفوذ، منتهزين الفرصة التى منحتهم إياها الأقدار، وشرعوا يعلون من قدر مدينتهم، وقد تأسى كل منهم بالآخر، فجددوا الأسوار واستكثروا منها فى أماكن عديدة، وأحاطوا البيازين بالجدران وأقاموا القلاع والحصون، وأسسوا قصوراً فخيمة لسكناهم. أثناء حكم أبى عبد الله ابن أبى سعيد وثانى ملوك بنى الأحمر، Abí Abdilehi الذى حقق انتصارات كبيرة على أعدائه – بدأ إنشاء قصر الحمراء وكان هو من أطلق عليه هذا اللقب. وضعت أساسات قصر الحمراء فى المكان الذى يشغله الآن ما يسمى ببرج الناقوس، وذلك على قمة ربوة مرتفعة تشرف على المدينة، فى مقابل الربوة التى تضم القصبة، وعلى مقربة منها بحيث لا يفصلهما سوى النهر. وقد شيد الملك ذاته قلعة أخرى صغيرة لها برجها، على سبيل التوقير والذكرى، وذلك على أطلال حصن آخر قديم – يُرَجح أن يكون هو الخاص بقرية اليهود، ويسمونه حاليًا أبراج الحمراء. كذلك أنشأ برجًا منيعًا فى باب التوابين أقام عليه الملكان الكاثوليكيان فيرناندو وإيسابيل قلعةً

صغيرة. إلى جانب ذلك فقد أرسى قواعد خمسة بروج فى الريف المحيط بالمدينة، فى جزء من الغوطة، من أجل إغاثة المسلمين من أرباب الحرف عابرى السبيل - إذا ما دعت الحاجة.

اقتدى بهذا الملك وسار على هديه إخوانه ممن خلفوه وفاقوه سلطةً وغنى، حيث أكملوا مسيرة قصر الحمراء، فوسعوه ورفعوا من شأنه بصورة فائقة الروعة. ونذكر على وجه الخصوص أبا الحجاج يوسف بن أبى الوليد Abi Hagex Jucef, hijo de Abil Gualid الذى تولى الحكم قرابة عام ١٣٣٦ من ميلاد المسيح الموافق ٧٤٥ من الهجرة، فأقام المبانى الخلابة للقصور وأنفق فيها جزءًا ضخمًا من كنوزه خلال اثنتى وعشرين سنة، حكم خلالها فى سعادة متمتعًا بسلام طويل الأجل.

عدد هذه القصور الملكية اثنان، يجاور كل منهما الآخر، بحيث لا يفصل بينهما سوي جدار واحد. أولها وهو الرئيس يدعى برج قمارش Comares، نسبةً إلى برج مشغول ببذخ من الداخل بزخارف محببة للغاية إلى نفوس الفرس والسوريين تُدْعَى قماراشية Comaragia. وكان يضم الغرف التى يرتادها الملك خلال فصل الصيف، حيث تشرف نوافذه - التى تفتح ناحيتى الجنوب والغرب - على منازل القصبة، والبيّازين، والجزء الأكبر من المدينة، وضفاف نهر حدرّة بأسرها، والغوطة؛ إضافة إلى إطلالة جميلة ماتعة على البساتين والغابات تبعث السرور الغامر فى نفس من يراها. فى مدخل هذا القصر يوجد فناء صغير به حوض منخفض على الطراز الإفريقى، حجمه كبير للغاية وقد صُنِع من قطعة واحدة شُغِلَت زخارفها بالصدف. على طرفيه هناك قاعتان مزدانتان بالذهب والأحجار المختلفة يصل بينهما القيشانى، اعتاد الملك أن يعقد فيهما مجلسه ويحضر مقابلاته. أثناء تغيبه عن المدينة، كان القاضى يُصْغى إلى المحتكمين إليه؛ وقد وُضِعَ على باب القاعة قطعة من القيشانى بداخل الجدران، عليها كلمات عربية تقول: "ادخل واطلب. لا تخش طلبًا للعدالة، فلابد لك أن تجدها."

أما القصر الثانى، الكائن بالجهة الشرقية، فيدعونه بهو الأسود - نسبةً إلى عين رقراقة بديعة توجد فى منتصف فناء مُبَلّط كله من الألبستر(*)، تحيط به أعمدة ذات نقوش فخمة، تحمل دعامات القصور والقاعات. تحوى هذه النافورة حوضًا ضخمًا من الألبستر، فى أعلاه اثنا عشر أسدًا من نفس المادة تحملهم عجلة. جسد الأسد فى حجم العجل الصغير، وهى مثقوبة بمهارة وحرفية، بحيث يسيل الماء من واحد إلى الآخر لينساب من أفواهها أجمع فى الوقت عينه. وينبثق من أعلاها رذاذ مياه مداه واسع جداً، لينهمر على كل الأسود ويغمرها. يضم هذا المأوى الغرف والحجرات والقاعات الملكية التى يقيم فيها الملوك فى أثناء فصل الشتاء، والتى لا تقل تكلفة زخرفتها عن مثيلاتها فى برج قمارش. وقد أقيم هناك الحمام الاصطناعى المشمس المزدان بالألبستر والنافورات والأعمدة حيث اعتاد الملوك أن يغتسلوا.

خلف قاعة الأسود باتجاه الجنوب أُقيمت مقبرة ملكية كان يُدْفَن فيها موتاهم. وقد عُثِرَ فيها عام ١٥٧٤ على قطع من الألابستر كانت موضوعة فيما يبدو على رأس أضرحة أربع من ملوك هذه العائلة. أما الجزء الظاهر منها فوق سطح الأرض -لأنها غُرِسَت قائمة - فيوجد على كلا وجهيها أجزاء من الكتابات الخاصة بالقبور، بحروف عربية مذهبة على خلفية زرقاء، تضم مدحًا وإعلاءً لذكرى الراقدين فيها - شعراً ونثراً، وسوف نستخرج منها بعض ما نُقِلَ لنضمنه تأريخنا هذا، انطلاقا من كونه أسلوبًا نادراً يختلف عما اعتدناه؛ وبغية عدم قطع تسلسل وصف المدينة، فسوف نسوقه بعد الانتهاء من الوصف وذلك فى فصل منفرد.

(*) نوع من الرخام المُعْرَق. (المترجمة).

الفصل الثامن

ويستعرض ذكريات الماضى ويتناول وسائل المتعة والترويح عن النفس لدى الملوك المسلمين فى تلك المدينة.

أضحى لدى أولئك الملوك الكافرين، إلى جانب هذين القصرين الفخمين، العديد من وسائل التسلية الأخرى تمثلت فى البروج والقصور والبساتين والحدائق الخاصة ، داخل أسوار كل من المدينة والحمراء وكذا خارجها؛ كما هو الحال فى قصر وبستان جنة العريف Ginalarife – وتعنى بستان صاحب السمر. وهو على هيئة حزام من حدوات الفرس عند البوابة المطمورة لذاك الحصن من الناحية الشرقية، ويحوى بداخله الكثير من الأشجار الضخمة ذات الظلال الوارفة من أشجار الفاكهة والزروع والزهور زكية العبير. كما تفيض بالماء الذى تجلبه لها ساقية من نهر حدرّة – ويُحْمَل من أعالى الربوة الكائنة هناك لمسافة كبيرة جداً، حتى يمسى ممكنًا سقيا أراضى الرى والضياع الموجودة على ذلك الجانب من الجبل وصولاً حتى النهر. وكان لديهم قصر آخر ممتع، يلى الذى ذكرناه صعوداً إلى قمة الربوة يدعى دار العروسة Dar laroca ويعنى قصر العروس. وقد أفادنا البعض أنه كان من أروع البقاع التى حوتها غرناطة آنذاك، حيث تمتد إطلالته على مساحات واسعة فى كل الاتجاهات، وهو حاليًا متهدم ولا يُرَى سوى أساساته. خلف هذه الربوة التى اعتاد العامة على تلقيبها بربوة الشمس Sol أو ربوة القديسة إيلينا Santa Elena يمكن مشاهدة بقايا قصر آخر فخم يُسَمى المروج Alijares، تميزت زخارفه بنفس روعة وإحكام زخارف قاعة برج قمارش، أحاطته حدائق غنّاثة وبرك مياه ضخمة ومزارع وبساتين – كلها مُدَمَرة فى وقتنا هذا.

إذا اتجهنا أسفل الربوة إلى نهر شنيل، الذى يقع فى جزئها الآخر ناحية الجنوب ، سنجد قصرًا آخرًا أو منزلاً للترفيه كان مخصصًا لتربية سائر أنواع الطيور. وهو مزود بحدائق وبساتين ترويها مياه نهر شنيل، ويدعى دارالويت (الوادى؟) Dar Luet بمعنى دار النهر، ويسمى حاليًا دار الدواجن. إلى جانب كل هذه القصور والحدائق، كان لديهم بساتين ملكية فى رابية وريف أبو النجد[٢٣] Abulnest – امتدت من سفح الربوة حيث رباط الشهداء حتى نهر شنيل – وتسمى حاليًا ريف الأمير.

اعتاد الملوك قضاء فصل الصيف فى تلك الحدائق لقربها من الحمراء؛ وعلى الرغم من حيازتهم لقصور أخرى فى القصبة باتجاه الغوطة، فإنهم لم يكونوا يرتادوها، وذلك لكى يبتعدوا عن حركة وأماكن مرور العامة الفضوليين ومثيرى الشغب. هذا هو ما حملهم على جعل بداية ذلك الحصن ونهايته خارج أسوار المدينة وعلى مقربة منها، اقتداءً بملوك فاس الذين أقاموا حصنًا آخر للغرض ذاته قبل سنين قليلة، حيث تركوا وراءهم ما يملكونه من قصور قصبة فاس القديمة ليشيدوا حصن فاس الجديد الذى لقبوه بالبيضاء، وعاشوا فيه أكثر أمنًا فى منازلهم مع ذويهم. ولطالما قلَّد ملوك غرناطة نظراءهم من ملوك فاس، فأضحت المدن محل الوصف وأجواءها ومبانيها وحكامها وكل ما هو دون ذلك على قدر كبير من التشابه.

(٢٣) هكذا ورد الاسم الأصلى فى موسوعة عن مدن أندلوثيا الصغيرة. (المراجع).

الفصل التاسع

يستكمل ذكريات الماضى ويستعرض بلدانًا أخرى على ضفاف نهرى حدرّة وشنيل.

إبان حكم أبى عبد الله أبى الحجاج يوسف، فى عصر الملك ألفونسو الحادى عشر فى حوالى عام ١٣٠٤ من ميلاد المسيح تم إنشاء الحى الذى يسمى حاليًا شارع الغماريين، نسبةً إلى جيل من الأفارقة ممن تعود أصولهم إلى جبال بلش غمارة Vélez de la Gomera، يلقبون الغماريين. وقد أمّوا إسبانيا ليلتحقوا بالمحاربين، وقد حطوا رحالهم هناك على مقربة من قصور الحمراء للسبب ذاته الذى حمل بنى زناتة على استيطان الحى الآخر. ما يطلق عليه الآن تشورًا Churra جرت العادة فى أزمنة أخرى على تسميته مورور Mauror ويعنى حى السقّائين Aguadores، حيث أقام به أناس فقراء اعتادوا على حمل المياه وبيعها فى أرجاء المدينة. أعقب ذلك فى العام ١٤١٠ من ميلاد المسيح قدوم المسلمين الهاربين من مدينة أنتقيرة، عندما سيطر عليها الأمير فيرناندو، الذى أمسى لاحقًا ملك أراغون Aragon ومُعلِم الملك خوان الثانى Juan el Segundo، ليعمّروا حى أنتيكيرويلا Antequeruela، الذى يقع برابية أهابول Ahabul على مقربة من معتكف الشهداء. تضم تلك الرابية سجونًا ضخمة على أعماق كبيرة اعتاد الأهالى أن يخبئوا فيها الخبز ليضحى أكثر أمنًا، إذ لم يكن ملوك غرناطة آنذاك يتمتعون بهذا القدر الكبير من القوة والسيطرة. فيما بعد باتت تلك سجونًا للأسرى المسيحيين يُحْتَجَزون فيها أثناء الليل وكذلك فى الصباح، إذا لم يُحْملوا لأداء بعض الأعمال. عندما استطاعت الملكة الكاثوليكية إيسابيل الفوز بالمدينة أمرت بتشييد

معتكف تقديس الشهداء بغرض تكريم ذكرى شهداء المسيح، من المسيحيين الأتقياء الذين عُذِبوا فى الأسر.

فى عام ١٥٧٣ من ميلاد المسيح كان الأب المبارك الكاهن خيرونيمو غارثيان دى أنتيسكو Gerónimo Garcián de Antisco – وهو ابن السيد دييغو غارثيان Diego Garcián، سكرتير جلالة الملك – يعمل رئيساً إقليمياً لأخوية رهبان الكرمل. وهى ذات حظوة ومميزة فيما يختص بأموال الصدقات، التى اعتاد كل من كونت تينديّا Tendilla وزوجته السيدة الكونتيسة كاتالينا دى ميندوثا Catalina de Mendoza دفعها، لإعانة الرهبان على شئون حياتهم وما يضطلعون به من مهام؛ لذا فقد أنشأ الأب فى ذاك المعتكف ديرا لرهبان الأخوية التى ينتمى إليها، وشرع فى تأسيس العديد من الأديرة الأخرى فى قشتالة وأندلوثيا بصحبة الأب ماريانو Mariano، وهو رجل حياته مقدسة، كرس نفسه للدين وكان أول من بعث روح الإيمان فى إسبانيا من جديد.

عندما كان المسلمون يسيطرون على غرناطة، بصفة خاصة إبان حكم أبى الحسن حوالى عام ١٤٧٦ لميلاد المسيح، كان فيها ثلاثون ألف منزل وثمانية آلاف جواد، وخمسة وعشرون ألف قوّاس. فى بحر ثلاثة أيام فحسب، كان يمكن جمع ما يربو على خمسين ألف مقاتل آخرين من مناطق البشرات وجبل ووادى وغوطة غرناطة. تحتوى الأسوار المحيطة بالمدينة على ألف وثلاثمائة برج، أما مخارجها المفضية إلى الغوطة فمستوية ومملوءة بالأشجار ذات الغابات الملتفة التى تسر الناظرين. وتلك المؤدية إلى الجبل لا تقل عنها امتاعاً؛ لأن المرء يعبر من خلالها بين الضياع والبساتين التى تغض بالنضارة، خاصةً إذا ما مر ببوابة البيازين وكانت تدعى فحص اللوز Fex el Leuz، حيث توجد بها ضياع عين الدمع Aynadama، التى تعلوها ضفاف نهر حدرّة. ذاك النهر يبدأ مسيرته على بعد أربعة فراسخ من المدينة باتجاه الشرق، فهو ينبع من عين ماء ضخمة تتفجر من جبل البيازين بالقرب من غيتور Guetor وبياس Veas وكورتِيس Cortes، وكذلك الكثير من البساتين العامرة بالنباتات النضرة لمسافة تربو على فرسخين، وهو يجرى بين تبتين شديدتى الارتفاع ليخترق المدينة بجوار باب وادى آش.

كما تُسْتَخرج منه المياه التى تضخها السواقى لرى الضياع والبساتين الكائنة على جوانب التبتين. أولاها تحمل الماء إلى جنة العريف لتُنقَل منه إلى الحمراء ومواضع أخرى، وثانيها تعرج إلى داخل المدينة من سفح الرابية التى تشغلها القصبة عند دير عذراء النصر، ثم تتجه يمينًا إلى دير القديس خوان دى لوس رييس، ثم تعبره لتزود آبار المنازل فى حى أخاريس بالمياه، منهيةً دورتها عند الأحواض العامة والمنازل الخاصة. إلى جانب هاتين الساقيتين توجد ساقية ثالثة تَحْمِل ماءها من النهر عينه وتسمى ساقية الطواحين. وتمر إلى دائرة القديسة أنا Santa Ana من أسفل حى شورًا من ناحية الحمراء، ومن هناك توزع ماءها ولا تعطى منه شيئًا للمنزل الرئيس بذاك الحى الذى يفتقر إلى مصدر سقاية خاص به. أما باقى النهر فيعرج فى وسط المدينة، حاملاً معه أوساخها، ليصب فى نهر شنيل خارج باب الرملة.

مياه نهر حدرّة وهواؤه فائدتهما عظيمة للصحة، ويحوى النهر بين رماله ذرات من الذهب الخالص – كما ذكرنا سلفًا. يزعم الموريسكيون أن تيارات الماء تحملها من تبة الشمس الكائنة وراء جنة العريف، التى يُعْتَقد أن فيها مناجم للذهب نظرًا للمعان الشمس وتلألئها الساطع وقت إشراقها وعند الغروب. سُمِى هذا النهر قديمًا سالون، وسماه بعض الكتّاب داوريو Daureo بيد أن المسلمين أطلقوا عليه حدرّة. ويُقَال إن تسميته مُحرفة من دار ريحان Darrayhan؛ لأنه يتفجر فى جبال البيازين من جبل يطلق عليه دار ريحان . يرى آخرون أنه اسم محرف من ديار شيون Diarcheon، وهو اللقب الذى منحه إياه اليونانيون. وأخيرًا فأيًا كان الاسم الذى يُدْعَى به فهو نهر نافع أفاد الأهالى من مائه في الداخل والخارج بغرض السقيا وأيضًا لرى الحقول.

على جانب المدينة الآخر باتجاه الجنوب يعبر على مقربة من أسوارها نهر آخر كبير يسمى شنيل، تشبهًا بالنيل، وأطلق عليه القدماء سينخيلو؛ ومنبعه يعلو أراضى غويخار فى جبل شلير – سماه المسلمون حفرة جهنم Hofrat Gihena ويعنى وادى الجحيم. هذا ويتفجر ماؤه من بركة ضخمة جدًا تقع فى أعلى قمم الجبل بجوار ميناء لوح Loh. من هناك يهوى منحدرًا فى أودية صخرية شديدة الوعورة توجد بين تلك

الجبال وغويخار، وفيه مناجم غنية باليشب المشوج بالعديد من الألوان؛ استخرج منها مليكنا وسيدنا فيليبى الأحجار الخضراء الثمينة، التى صُنِعَ منها ضريحه الكائن فى كنيسة القديس لورينثو الملكية .San Lorenzo el Real يتجه النهر فيما بعد إلى بينوس، ومنها إلى ثينيس وغرناطة، حاملاً معه سبعة أفرع أخرى تصدر جميعًا من نفس الفىء، وهى: هوة أكيلة Huet Aquila، وهوة توخار Huet Tuxar، وهوة بادو Huet Vado، وهوة الجوار Huet Alguaar، وهوة بلشتات Huet Belchitat، وهوة بيليتى Huet Belete، وهوة كاناليس Huet Canales. بعد هذه التفرعات يصب فى نهر آخر يسمى المياه البيضاء، يجىء من مسافة بعيدة ويجرى إلى الشمال من جبل غويخار عند دودار Dúdar وقنطار Quéntar. يحمل شنيل معه كل هذه المياه إلى خارج أسوار غرناطة، ليصب معه فى نهر حدرة نهرا موناتشيل Monachil الذى سماه القدامى فلوم Flumوديلار Delar؛ حيث يروى كافة أراضى الغوطة بمياه سواقيه، فتضحى شديدة الخصوبة ويُزْرَع بها القمح والشعير والذرة والكتان والفواكه ومحاصيل الحقول من كل صنف ونوع. فى أعقاب ذلك يتوجه إلى الغرب، ويرافقه نهر كوبيلا فى مسيرته أسفل قنطرة بينوس دى لابيغا " Pinos de la Vega أشجار صنوبر الغوطة"، ليترك مدينة إيورا وجبل باربانداراBarbandara على الجانب الأيمن قاصداً مدينة لوشة. وهو يمنح الخصوبة لكل تلك الأراضى والحقول التى تقابله خلال مسيرته، لينتهى به المطاف فى نهر الوادى الكبير Guadilquivir، وهو نهر وافر المياه، يُعَد فى مصاف الأنهار الرائدة - إذا ما قارنّاه بذلك النهر وغيره من الأنهار التى لا تصب فى البحار.

الفصل العاشر

يستكمل استعراض سيرة القدماء، ووصف عين الفخار Alfacar وغيرها من العيون والبساتين الموجودة خارج غرناطة.

كل تلك المياه التى أتينا على ذكرها سلفًا لا تصل إلى القصبة أو حى البيازين. بيد أن هذا الأمر لا يعنى عدم وفرة الماء العذب فى تلك الناحية، نظرًا لوجود عين ماء فى جبل البيازين. حيث يحتوى الجبل على مغارة عميقة للغاية تشبه الهاوية، يخرج من قاعها السحيق نافورة مياه فى حجم ثورين بحيث يتوزع ماءها يُوَزَّع فى اتجاهات مختلفة. لينبع منها ثلاثُ عيون رئيسة ذائعة الصيت: أولاهم عين الملك Rey وتقع على مقربة من غويتى، والثانية عين دايفونتيس Dayfontes الموجودة إلى جوار نزل؛ وكان هذا الموقع إبان حكم المسلمين يشغله حصن يُسَمَّى دار ألفون Dar Alfun، يَبْعُد حوالى أربعة فراسخ من غرناطة فى الطريق المؤدية إلى بلدة حصن اللوز. أما ثالثتهم فهى عين الفخار Alfacar التى يفصل موقعها عن غرناطة مسافة فرسخ واحد – إلى الأعلى من قرية تحمل الاسم عينه، حيث تضخ كمية كبيرة من المياه. وقد أثبتت التجربة أن هذه العيون الثلاث تصدر من منبع واحد؛ لأن إلقاء بعض الزيت أو القش فى العين الرئيسية كان يؤدى بالتبعية إلى وصولها للفروع الباقية، وهو ما أقره سكان البيازين من الموريسكيين القدماء. وتستخدم مياه عين الفخار – التى يحصل عليها السكان من إحدى السواقى، ويحملونها على جوانب الربوة وقممها وصولاً إلى غرناطة – لرى البساتين والأراضى الزراعية فى كل من الفخار وبيثنار وموربا وكذا جزء لا بأس به من كرمات الغوطة والحدائق والضياع فى عين الدمع، التى يستمتع بها قاطنوها ذوو الحظ

الوافر على مدى ثلاثة أشهر من كل عام، كانوا يطلقون عليها الزير Azir أثناء سيطرة المسلمين على المدينة، وتعنى فصل الربيع(٢٤)، وهم يحذون بذلك حذو أهالى فاس ممن اعتادوا فى التوقيت نفسه أن يقصدوا ضياع وبساتين ثينخيفور Cingifor، وهى بقعة أخرى تكسوها النضارة والأشجار الملتفة، كانوا يقيمون فيها منازلهم ومزارعهم المليئة بوسائل المتعة.

تشغل حدائق عين الدمع مساحة فرسخ ونصف على جانب جبل البيّازين المطل على الغوطة لتنتشر على مقربة من أسوار المدينة. وكان الموريسكيون يلقبون تلك البقعة عين الدمع؛ لأن البعض يزعم أنه قبيل نقل الأهالى للساقية من الفخار إلى غرناطة، لم يكن بها سوى عين صغيرة يقطّر الماء منها نقطة بنقطة كأنها تذرف الدموع، وهو ما يمكن رؤيته إلى وقتنا هذا؛ كما أن ماءها يفيد فى شفاء أمراض المعدة. بيد أن بعض العارفين من سكان البيّازين أنبئونا أنها سُمِيَت عين الدمع نظراً للغرامات والمخالفات التى أقرها مدراء توزيع الماء والقائمون على شئون العدالة، والافتراءات التى قاموا به ضد المستفيدين من توزيع هذه المياه فى الريف أو المدينة، إذا ما سرقوها أو أخذوا منها ما يفوق مخصصاتهم أو ألقوا مخلفاتهم فى الساقية. فى النهاية يعبر مجرى هذه الساقية أسفل باب البيازين، حيث توجد الفتحات المخصصة لخروج المياه والخزانات التى تُحْفَظ بها لتوزيعها على منازل الأهالى والأحواض العامة الكائنة فى الكنائس التى لا تصلها المياه. كما أنها تُمد كل أرجاء البيازين وكذلك القصبة بكميات وفيرة منها، وتوفر الماء اللازم لرى بعض البساتين والحدائق الموجودة داخل أسوار المدينة. أما الحقول الواسعة والأراضى التى تغطيها الأشجار خارج المدينة باتجاه الغوطة فترويها مياه السواقى التى تنبع من النهرين السابق ذكرهما، كما تسهم فى تشغيل أعداد كبيرة من طواحين الدقيق. وهكذا فإن سائر أنحاء غرناطة كانت تتمتع بكميات وفيرة من مياه الأنهار والعيون. أما المنازل فهى تمتاز بإطلالات

---

(٢٤) لاحظ عدم تطابق اللفظ والمعنى، مما يوحى بعدم دراية مارمول باللغة العربية (المراجع).

تبعث فى النفس البهجة والمتعة على مدار العام: فما يشرف منها على الغوطة يقابله مناظر الخضرة النضرة والأشجار الوارفة والعديد من الأماكن التى تقع بينها، والأمر ذاته بالنسبة للمنازل المشرفة على المرتفعات، أما تلك المطلة على الجبال فان رؤيتها عن قرب لا تقل إمتاعًا حيث تغطيها الثلوج معظم شهور السنة، فتبدو كما لو كانت مغطاة بملاءة قطنية ناصعة البياض.

(*) لفظ مشتق من البوار، وذلك للسبب المذكور آنفًا. (المترجمة)

الفصل الحادى عشر

يستكمل ذكريات الماضى، ويستعرض اتساع أراضى غرناطة وخصوبتها. كما يتضمن شواهد القبور الأربعة التى عُثِرَ عليها فى مدافن الحمراء الملكية ؛ وكذا حساب السنة العربية القمرية والسنة اللاتينية الشمسية.

تزخر غرناطة بالفواكه من كل صنف ونوع، ولديها كميات وفيرة من الحطب، وهى عامرة باللحوم، وقد حبتها الطبيعة بقدر كبير من الأسماك الطازجة، والكثير من الزبيب والتين واللوز الذى يُحْمَل إليها من المناطق الساحلية. كما أن بها خموراً وزيوتاً غزيرة، والعديد من البساتين فائقة الجمال، وسائر أنواع الحمضيات كأشجار البرتقال والليمون والأترنج. أهم من ذلك كله أنها تقع فى دائرة يَكْثُر بها الخبز والدقيق والشعير، حيث يدخل فى إطارها بلدات إيورا ومونتيلريو Monteirío وموكلين Moclín وكولوميرا Colomera وحصن اللوز ووادى أورتونا Guadahortuna ومونتيخيكار Montexícar وغيرها مما يضم مزارع ضخمة وأراضى حرث؛ بالإضافة إلى مدينة لوشة والحامة وقلعة يحصب وكذلك بقاع أندلوثيا المتاخمة لها. هذا وتزدهر تجارة الحرير والاشتغال به فى تلك المملكة، حتى أنه يتم تأجير حق جلالة الملك فى تلك الأراضى فى مقابل ثمانية وستين عملة مرابطية، وهو ما يعادل ألف وستمائة وثمانين عملة ذهبية. رغماً عن أن كل أراضى غرناطة القريبة من البحر هى جبال وعرة وخشنة ، فإن هذا الأمر لا يمنع تمتعها بالخصوبة وتوفر المياه بغزارة من الأنهار والعيون، التى تُرْوَى بها الحقول والبساتين والأراضى المزروعة. كما أن ما تنتجه المناطق الجبلية من فاكهة ولحوم أفضل، ومذاقه ألذ، ومدة صلاحيته أطول من منتجات الغوطة،

بمقتضى ذلك فإن الخبز أثقل وزنًا وأجود نوعًا، والمياه أكثر إنعاشًا، والهواء أصح إلى حد بعيد.

خلال حكم المسلمين كانت دور هذه المدينة متلاصقة، كما كانت الشوارع ضيقة إلى درجة أن المرء يمكن أن يصل بذراعه من نافذة إلى أخرى، وفى العديد من الأحياء لم يكن باستطاعة الرجل عبورها على صهوة جواده شاهرًا رمحه بيده. يزعم الموريسكيون أن ذلك الأمر كان القصد منه تأمين حماية أكبر للمدينة. أُقيْمَت بعض المبانى المهمة بالمدينة على الطراز الإفريقى، وكانت تضم عددًا كبيرًا من المساجد والمدارس وبعض المستشفيات وكذلك سوقًا عامرًا لتجارة الحرير على غرار مدينة فاس - وإن لم يكن بنفس ضخامة حجمه - حيث عُقِدَت كل المعاملات التجارية للمدينة. فيما يتعلق بالجانب الروحانى، كان للمدينة فقيه أكبر وفقهاء آخرون مساعدون، وكذلك قضاة مدنيون وجنائيون. من هذا المنطلق، وأيضًا فيما يخص رجال الشرطة وحسن الإدارة، تشبه غرناطة إلى حد كبير مدينة فاس. فقاطنوها تربطهم علاقة صداقة قوية وهم قانعون بما لديهم؛ والحكام تجمعهم صلات القرابة وهم متحدون وشديدو التدين مثلهم مثل أقرانهم الآخرين، كما أنهم جميعًا يضمرون العداء لكل ما هو مسيحى.

مضمون ما كُتِبَ على القبور بحروف عربية، وعُثِرَ عليه فى شواهد قبور ملوك غرناطة المسلمين

نُقِشَت كتابات القبور التى حوتها شواهد أضرحة الملوك المسلمين الأربع - التى ذكرنا سلفًا أنه تم العثور عليها فى المدافن الملكية لقصرى الحمراء - بحروفٍ عربيةٍ فائقة الجمال على كلا وجهيها: أحدهما سِيق نثرًا بينما صِيغ الآخر فى أبياتٍ من وزن الشعر الكبير. وكلها تمتدح ذكرى أربعة ملوك عظام هم: أبو عبد الله بن محمد أبى سعيد Abi Abdilehi, hijo de Mahamete Abuceyed، ثانى ملوك بنى الأحمر الذى تولى الحكم إبان عهد الملك ألفونسو الحكيم؛ وأبو الوليد اسماعيل بن أبى سعيد فرج

الذى حكم فى نفس زمن الملك ألونسو Abi Gualid Ismael, hijo de Abi Ceyed Farax الحادى عشر، وهو رابع ملوك آل الأحمر؛ وأبو الحجاج يوسف Abil Hagex Jucef، وقد تولى الملك فى عهد الملك ألونسو الحادى عشر الذى ذكرناه فيما سبق، وكان سادس حكام آل الأحمر؛ وأخيرًا أبو الحجاج يوسف، وكانت كنيته الغانم بالله Ganem Bilehi، وقد ارتقى العرش أثناء حكم الملك خوان الثانى - الذى تعلم على يد الأمير إيرناندو الذى انتصر فى أنتقيرة، وهو الثالث عشر فى تسلسل حكام آل الأحمر. وهذا ما جاء فى كل منها:

الحجر الأقدم يقول على أحد أوجهه بأسلوب النثر:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو قبر الملك الفاضل، الشجاع، العادل، أكثر من اتقى الله، المتفرد، الورع، الحكيم، المختار، المهاب، الغازى فى سبيل الله، القانع، المتعبد، شديد القرب من الله فى السر والعلانية، دائم التفكر فى عظمته ويلهج لسانه بتمجيده، من اعتاد الاعتناء برعيته والاهتمام بشئون صحتهم وحكمهم وتطبيق الحق والعدل، من يُعَد نموذجًا لدين الرحمة، من عمل لخير العباد وصالحهم بكل حنو واجتهاد حتى يهبهم الحرية والطمأنينة والراحة - وهو ما ينبع من غيرته وحسن نواياه وطيبته وإخلاصه فى العمل وصفاء روحه - من سعى دومًا لفعل الصالحات ليأتى نوره يسعى بين يديه يوم القيامة، الملك ذو الأفعال المجيدة والصنائع المقدسة الرفيعة، المنتصر فى حربه على الكافرين بجهده وتفانيه ونيته الصادقة، من تحمل عبء تطبيق العدالة واستمر على نهج الرأفة وإرسائها، المدافع عن الناس ومُعَظِم سنة الرسول المختار، المثال على شجاعة أسلافه المغيثين الملهوف والمنتصرين ممن سبقوا وأخلصوا لله النوايا، من انتوى وأقسم أن يخدم الله ويسير على درب أجداده فقام بمآثر سامية فى غزو أعدائه والحفظ على سلامة أرضه ورعيته وصيانتهم. خليفة المسلمين وإمام المتقين وقاهر الكافرين أبى عبد الله، ابن السلف المغوار المجاهد فى سبيل الله والمنتصر بنعمته محمد أبو سعيد بن نصر Mahamete Abu Zeyed Ibni Nacer خليفة

الموحدين ومطبق الشرع والدين، أنار الله قبره وطيب مثواه برحمته وفضله. وُلدُ - رضى الله عنه - فى اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم لعام ٦٣٣، وبويع ملكًا لأول مرة مع حلول هلال شعبان فى عام ٦٧١. وقد توفى - تغمد الله روحه بمنّه - بعد فراغه من أداء صلاة العشاء ليلة الأحد الثامن من شعبان سنة ٧٠١. رفعه الله إلى أعلى منازل المقربين، وحشره مع الأولين الذين اتبعوا كلمة الحق، ووعدهم الطمأنينة وجنة النعيم."

أما الوجه الآخر للحجر ذاته فكُتِبَ عليه أبياتُ شعر عربية:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا مأوى الرفعة والصدق والرفق، ضريح القائد المغوار الأمين الفريد. ليجزئ الله التضحية التى أخفت فى هذا التجويف السمو والشجاعة والفضيلة. فيه ترقد الشدة واللين والرحمة، ليست شدة الوحوش الضارية أو التحرر الذى يولده الجمود والافتقار إلى الفطنة، ولكن القدوة والأنموذج للعفة والتدين. إنه مبعث الفخار والزهو فى نفوس الملوك، السيد شريف المكمن والمخبر، الذى شغله فى كل الأونة إظهار عظمته واستئصال أعدائه من جذورهم كما يغمر السيل الأرض أو يذود الأسد عن عرينه. على ذلك تشهد أعماله عينها، وتقره بصدق ألسنة الرجال. فهو لم يخرج قط فى جيش، ولم يتأهب للقاء أعدائه إلا لوحظ عليه آنذاك الطيبة والبسالة وبشاشة الوجه. ومن إمارات شجاعته أنه لم يكن يرضى أن يمتطى جنوده سوى صهوة الخيل التى لا تشرب المياه إلا من برك وآبار الدماء. وكذلك لم يسبق له إقرار أى حكم خلال حكمه لا يحفظ كرامة واعتبار أصغر أفراد رعيته. وهكذا فإن من يجهلون اتصافه بتلك الفضائل ودفاعه المستميت عن شريعة الله عن طريق إقصاء أعدائه وإبادتهم، يصل إليهم صدى أفعاله التى تفوق شهرتها وذيوعها النار المتأججة على قمة جبل فليتغمد الله القبر الذى يضم بين جنباته هذا الرجل بسحائب رحمته وظله وجنته على الدوام".

أما ثانى شواهد القبور قدماً فقد كُتِبَ على أحد أوجهه بأسلوب النثر(٢٥):

هذا قبر السلطان الشهيد فتاح الأمصار، وناصر ملة المصطفى المختار ومحيى سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولةً، وأمضاهم فى ذات الله صولةً، سيف الجهاد، ونور البلاد، ذى الحسام المسلول فى نصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن، المجاهد فى سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ابن الهمام الأعلى، الطاهر الذات والفخار، الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس، المرحوم أبى سعيد فرج، ابن علم الأعلام وحامى حمى الإسلام، صنوا الإمام الغالب، وظهيره المقدس العلى المراتب، المقدس، المرحوم أبى الوليد إسماعى بن نصر، قدس الله روحه الطيب، وأفاض عليها غيث رحمته الصيب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحياه بالحسنى والزيادة، جاهد فى سبيل الله حق الجهاد، وصنع الله له فى فتح البلاد، وقتل كبار الأعاد، ما يجده مذخورا يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فختم عمره بخير عمله، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه، وغبار الجهاد طى أثوابه، فاستشهد رحمه الله شهادة أثبتت له فى الشهداء من الملوك قدما، ورفعت له فى أعلام السعادة علما. ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدى الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة، وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستشهد فى يوم الإثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، فسبحان الملك الحق، الباقى بعد فناء الخلق.

(٢٥) الفقرة التالية بأكملها، وأبيات الشعر التى تليها، منقولة نصاً من كتاب "الإحاطة فى أخبار غرناطة" لابن الخطيب، مكتبة الخانجى، القاهرة (المراجع).

وكُتِبَ على وجهه الآخر بأشعار عربية:

تخص قبرك يا خير السلاطين ... تحية كالصبا مرت بدارين

قبر به من بني نصر إمام هدى ... عالي المراتب في الدنيا وفي الدين

أبو الوليد وما أدراك من ملك ... مستنصر واثق بالله مأمون

سلطان عدل وبأس غالب وندى ... وفضل تقوى وأخلاق ميامين

لله ما قد طواه الموت من شرف ... وسر مجد بهذا اللحد مدفون

ومن لسان بذكر الله منطلق ... ومن فؤاد بحب الله مسكون

أما الجهاد فقد أحيا معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون

فكم فتوح له تزهو المنابر من ... عجب بهن وأوراق الدواوين

مجاهد نال من فضل الشهادة ما ... يجبى عليه بأجر غير ممنون

قصى كعثمان في الشهر الحرام ضحى ... وفاة مستشهد في الدار مطعون

في عارضيه غبار الغزو تمسحه ... في جنة الخلد أيدى حورها العين

يسقى بها عين تسلمى وقاتله ... مردد بين زقوم وغلسين

تبكي البلاد عليه والعباد معا ... فالخلق ما بين أحزان أفانين

لكنه حكم رب لا مرد له ... فأمره الجزم بين الكاف والنون

فرحمة الله رب العالمين على .. . سلطان عدل بهذا القبر مدفون

أما ثالث الأحجار قدماً فجاء على أحد أوجهه بأسلوب النثر(٢٦):

هذا قبر السلطان الشهيد، الذى كرمت أحسابه وأعراقه، وحاز الكمال خلقه وأخلاقه، وتحدث بفضله وحلمه شام المعمور وعراقه، صاحب الآثار السنية، والأيام الهنية، والأخلاق الرضية، والسير المرضية. الإمام الأعلى، والشهاب الأجلى، حسام الملة، علم الملوك الجلة، الذى ظهرت عليه عناية ربه، وصنع الله له فى سلمه وحربه. قطب الرجاحة والوقار، وسلالة سيد الأنصار، حامى حمى الإسلام برأيه ورايته، المتسولى فى ميدان الفخر على غايته، الذى صحبته عناية الله فى بداية أمره وغايته، أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ابن السلطان الكبير، الإمام الشهير، أسد دين الله، الذى أذعنت الأعداء لقهره، ووقفت الليالى والأيام عند نهيه وأمره. رافع ظلال العدل فى الآفاق حامى حمى السنة بالسمر الطوال والبيض الرقاق ، مخلد صحف الذكر الخالد والعز الباق، الشهيد السعيد المقدس أبى الوليد، ابن الهمام الأعلى الطاهر النسب والذات، ذى العز البعيد الغايات، والفخر الواضح الآيات، كبير الخلافة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر، تغمده الله برحمة من عنده، وجعله فى الجنة جاراً لسعد بن عبادة جده، وجازى عن الإسلام والمسلمين، حميد سعيه، وكريم قصده. قام بأمر المسلمين أحمد القيام، ومهد لهم الأمن من ظهور الأيام، وجلى لهم وجه العناية مشرق القسام، وبذل فيهم من تواضعه وفضله، كل واضح الأحكام. إلى أن قضى الله بحضور أجله، على خير عمله، وختم له بالسعادة، وساق إليه على حين إكمال شهر الصوم هدية الشهادة. وقبضه ساجداً خاشعاً، منيباً إلى الله ضارعاً، مستغفراً لذنبه، مطمئناً فى الحالة، التى أقرب ما يكون العبد فيها من ربه. على يد شقىٍّ قيضه الله لسعادته، وجعله سبباً لنفوذ سابق مشيئته وإرادته، خفى مكانه لخمول قدره. وتم بسببه أمر الله لحقارة أمره.

---

(٢٦) آثرنا هنا أيضاً أن ننقل النص الذى أورده ابن الخطيب فى "الإحاطة" (المراجع) .

وتمكن له عند الاشتغال بعبادة الله، ما أضمره من غدره، وذلك في السجدة الأخيرة من صلاة العيد. غرة شوال، من عام خمسة وخمسين وسبعماية. نفعه الله بالشهادة التي كرم منها الزمان والمكان، ووضح منها على قبول رضوان الله البيان. وحشره مع سلفه الأنصار، الذين عز بهم الإيمان، وحصل لهم من النار الأمان. وكانت ولايته الملك في غرة اليوم الرابع عشر لذي الحجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية. ومولده في الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعماية. فسبحان من انفرد بالبقاء المحض وحتم الفناء على أهل الأرض ثم يجمعهم إلى يوم الجزاء والعرض، لا إله إلا هو.

وكُتِبَ على وجهه الآخر أشعار عربية:

يحييك بالريحان والروح من قبر ... رضى الله عمن حل فيك مدى الدهر

إلى أن يقوم الناس تعنو وجوههم ... إلى باعث الأموات في موقف الحشر

ولست بقبرٍ إنما أنت روضة ... منعمة الريحان عاطرة النشر

ولو أنني أنصفتك الحق لم أقل ... سوى يا كمام الزهر أو صدف الدر

ويا ملحد التقوى ويا مدفن الهدى ... ويا مسقط العليا ويا مغرب البدر

لقد حط فيك الرحل أي خليفة ... أصل المعالي غرةٌ في بني نصر

لقد حل فيك العز والمجد والعلى ... وبدر الدجى والمستجار لدى الدهر

ومن كأبي الحجاج حامي حمى الهدى ... ومن كأبي الحجاج ماحي دجا الكفر

إمام الهدى غيث الندى دافع العدا ... بعيد المدى في حومة المجد والفخر

سلالة سعد الخزرج بن عبادة ... وحسبك من بيت رفيع ومن قدر

إذا ذكر الإغضاء والحلم والتقى . . . وحدثت عن علياه حدث عن البحر

تخونه طرف الزمان وهل ترى ... بقاءً لحيٍّ أو دوامًا على أمر

هو الدهر ذو وجهين يومٌ وليلةٌ ... ومن كان ذا وجهين يعتب في غدر

تولى شهيدًا ساجدًا في صلاته .. . أصيل التقى رطب اللسان من الذكر

وقد عرف الشهر المبارك حق ما ... أفاض من النعمى ووفى من البر

وباكر عيد الفطر والحكم مبرم ... وليس سوى كأس الشهادة من فطر

أتيح له وهو العظيم مهابة ... وقدرًا حقير الذات والخلق والقدر

شقيٌّ أتت من لدنه سعادة ... ومنكر قوم جاء بالحادث النكر

وكم من عظيم قد أصيب بخامل ... وأسباب حكم الله جلت عن الحصر

فهذا عليٌّ قد قضى بابن ملجم ... وأوقع وحشي بحمزة ذي الفخر

نعد الرماح المشرفية والقنا ... ويطرق أمر الله من حيث لا تدري

ومن كان بالدنيا الدنية واثقًا ... على حالة يومًا فقد باء بالخسر

فيا مالك الملك الذي ليس ينقضي ... ويا من إليه الحكم في النهي والأمر

تغمد بستر العفو منك ذنوبنا ... فلسنا نرجي غير سترك من ستر

فما عندك اللـــــهم خيرٌ ثوابه ... وأبقى ودنيا المرء خدعة مغتر

أما رابع الأحجار وأحدثها تاريخًا فيحوى أحد أوجهه بلغة النثر ما يلى:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا قبر الملك السخى، الطاهر قلبًا ونسبًا، من اكتمل أدبه، المنتصر، الرحيم، الشفيق، أكثر الملوك بصيرةً وفطنةً، من زانته نعمة الله وخشيته. علمٌ فى البيان وفصاحة اللسان. من اجتمعت له الحكمة والفضل والعدل والرأفة أجمع. وهبه الله حسنًا إلهيًا تمثل فى شخصه وهمته العاليتين. عماد الأخلاق والحياء. من تجلى فيه حسن تقوى الله، ولم يدخر جهداً ولا حيلة للثأر ممن أساء إلى رعيته. إنه حامى لواء الشريعة، ذو النسب السامى، سليل الأنصار المدافعين عن الحق. هو حاكم المسلمين ومعظِّم شرع الله أبو الحجاج يوسف، ابن الملك السامى والحاكم الجسور، بحر الحكمة وبستان المعرفة والفطنة. مطاعة كلمته بين الملوك، حامى حمى المدائن بقوته وبسالته، حصن الشعوب ببصيرته وعلمه، منفق الخيرات التى ملكتها يداه الكريمتان. من أعمل جل قواه فى محاربة أعدائه، حاكم المسلمين الشجاع الهمام المجيد البارز الغنى بالله أبى الحجاج يوسف؛ ابن الملك رفيع المقام ذائع الصيت، أفضل الملوك، من بدد بنور الحق ظلمة الملوك الكافرين، حيث سعد بتوافق حظه مع الأجرام السماوية التى مهدت الطريق للعديد من الأمور الحسنة التى أعانته ليتغلب عليهم. لقد امتلك صفات على طرفى النقيض دون أى تعارض. إنه من أثنى الله عليه، ومن أجل هذا ولمحبته لله ومخافته إياه هجر أمور الدنيا وابتعد عنها متذللًا للخالق. هو فاتح الممالك الشداد، الذى أفاد من الشرع وتعاليمه، وحقق العجائب فى فتوحاته. من ازدان بتقوى الله، صاحب المقام والعهد الزاهر، حاكم المسلمين الغنى بالله أبى عبد الله؛ ابن الملك المعروف لإقصاء أعداء الدين، صاحب النوايا المحققة، من شغله وأهمه إعلاء كلمة الله. من عمل لصالح المدن الكبرى كلها ودفاعًا عنها أمورًا عظام نابعةً من صلاحه ورحمته وأدبه. حاكم المسلمين المجيد المدفوع والمأموم بالله أبى الحجاج يوسف، ابن الملك السالف، أكبر الملوك، غوث وعون المحتاجين، أكبر بنى نصر وأرفعهم شأنًا، وأجمل براعم تلك الشجرة ذات الجذور الراسخة الثابتة والفروع التى تصل إلى عنان السماء. فاتح الديار ومفشى السلام بين الأنصار، هو المثل والقدوة لما اعتاده

أسلافه المعظِّمين للشرع. إنه المجاهد فى سبيل الله حاكم المسلمين السعيد أبى الوليد اسماعيل فرج بن نصر. تغمده الله بفضله وأسكنه فى أعالى جنان نعيمه، واستقبله فى رحابه الطاهر ليرى ما أعده له من كرامة ومقام وذلك فجر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان سنة ٨٢٠. كان - رحمه الله - قد وُلِدَ فى منتصف ليل الجمعة الموافق السابع والعشرين من صفر لعام ٧٩٨. سبحان من كتب لنفسه الملك والبقاء ولبقية خلقه الموت والفناء، وهو الملك الحى الذى لا إله إلا هو."

أما الوجه الآخر فكُتِبَ عليه بأوزان الشعر العربى:

"بسم الله الرحمن الرحيم. ليُحَيِّى السحاب بنداوته ومائه أرض هذا القبر! لتبعث إليه بساتين السماء عبير أشربتها، فما يحوى هذا القرار سوى الرجولة والإغاثة! لتتنزل البركات والرحمات على من يزور هذا الموضع! غمره الله بفضله وباتت جنة الفردوس مستقره. استقبلته أنعم الله بكلتا يديها فكان هذا هو النعيم المقيم الذى يرقد فيه رجل منقطع النظير - قدس الله روحه. كان يوسف فرعًا من سلفه يوسف، فما من شك فى انتمائه لعائلة الجد والاجتهاد. الدنيا فانية، وستفنى مهما قاومنا. أرادوا أن يطمسوا ذكراه فوارته تحت التراب، مع أن اسمه الناصع وإخلاصه الساطع وأعماله الفاضلة ظلت كلها تشرق وتتلألأ وتتبوأ مكانةً سلمية. فأبو الحجاج شهاب موفور الصحة، إذا ما غابت الشمس أناب عنها بريق وجهه وإشراق محياه؛ وكان عونًا للمطر تحل محله يداه المعطاءتان الكريمتان. ها قد كف عطاؤه، ونضب بحر معجزاته، وجف مرعاه، وانقطع جوده، وضعفت شوكة جيوشه، وتلاشى صوت نصائحه، وتهدمت قصوره، وسكتت حجته، وأظلم كونه، وانعدم فضله وكنفه، لكنه بفضل الله الرحيم نجا فى الدار الآخرة عندما وقف بين يدى الله. يا للأسى الذى يغمرنا جميعًا لانقضاء حياة هذا الحاكم الذى حظى بكل تلك الفضائل! إنه يسكن بين جنبات هذا القبر فى طمأنينة ولكنه يقيم حقًا فى قلوب الرجال. لقد كان ما قدمه من عون كأجود ما يكون السخاء والكرم، وكان رضاه وصدقه كنور الحياة نفسها، ويداه شبيهتان بسيل المطر

المنهمر. لنرى، ألم يكن هذا الملك نجمًا فى شموخه؟ ألم يكن فضله وصلاحه نوراً يرتعش أمامه ضوء الشمس؟ وماذا عن شغفه؟ ألم يكن اقتلاع الشر من جذوره وتعليم الفضيلة والعفة؟ وولعه بالآداب؟ ألم يكن بين شمائله وفضائله العفة وتقوى الله والأبهة والجود؟ لنرى، ألم يكن متفرداً بين أصحاب المناصب فى الدنيا بأسرها، وما برح يتغلب على ما واجهه من مصاعب ببصيرته النافذة؟ ألم تتضح أخلاقه فى أحاديثه التى غطى بريقها على الشهب اللامعة؟ ألم يكن الشعر أحد مكونات شخصيته التى زينت مداخل المحاكم التى شارك فيها بصورة أفضل وأبهى من الأحجار الكريمة المنتقاة؟ ألم يكن حماية ومأوى لذويه وخاصته؟ وفى الحروب أمست قواه وبسالته درعًا كافيًا ؟ ألم يُعْمِل شجاعته وحماسته فى المعارك؟ كم من همم أعدائه أُخْمِدَت وقهرتها جسارة سيفه! هكذا كان هذا الملك صالحًا وامرؤ طالما تعهد بتنفيذ كلمته. ورغمًا عن أنه لم يخذل الدهر فقد خذله هو ولم يقف إلى جواره."

إلى هنا تنتهى كتابات شواهد القبور. وإذا ما أراد القارئ أن يتثبت من أوقات ولادة وحكم ووفاة هؤلاء الملوك الأربع، فنحن ننبههم إلى أن المسلمين لديهم تقويم هجرى وآخر قمرى. أما العام الشمسى فيتفق مع سنتنا اللاتينية، وقد أطلقوا على الاثنى عشر شهراً أسماءً كاللاتينية. وعادةً ما يستخدم هذا التقويم لحساب شئون الزراعة فى إفريقيا بأسرها؛ فهم لديهم كتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء يسمى "كنز الزارعين" Tesoro de los agricultores، يبدو أنه كان قد تُرْجِم من اللاتينية إلى العربية فى مدينة قرطبة، وبمقتضاه يحسبون أوقات الغرس والزرع والحرث والحصاد إلى آخر تلك الأمور، ويرون فيه ثلاثة عشر قمراً. بيد أن الفقهاء العرب والعلماء والمؤلفون يحسبون العام بأسلوب مختلف، حيث يشهدون خلاله اثنى عشر قمراً : ست منها قوامها تسعة وعشرين يومًا والست الأخرى ثلاثون يومًا. فيكون مجموعها ثلاثمائة أربعة وخمسون يوما، أى أحد عشر يومًا وست دقائق أقل من العام اللاتينى. وهؤلاء يحسبون الفارق بين التقويمين مع مرور ثلاثين عامًا شمسيًا بمعدل يقل عامًا إلا أربعة وخمسين يومًا. أول شهور السنة بالنسبة إليهم يولد هلاله فى شهر يوليو ويسمونه

محرم[٢٧] Maharran وهو بالنسبة إلينا يعدل أيام الحر الشديد. والثانى هو صفر Zafar، والثالث ربيع الأول Arbea el Aul، والرابع ربيع الثانى Arbea el Tani، والخامس جمادى أول Gumen el Aul، والسادس جمادى ثان Gumen el Tani، والسابع رجب Argeb، والثامن شعبان Zaabón، والتاسع رمضان Arromadán، والعاشر شوال Xevel، والحادى عشر ذو القعدة Delcaada، والثانى عشر ذو الحجة Delhexa.

هناك آخرون ممن يعدون ثلاثة عشر شهراً قمرياً، يضيفون كل اثنى عشر شهراً شمسيًا واحداً فى بداية العام، فيضحى هناك محرم الأول Maharrán primero و محرم الثانى[٢٨] Maharrán segundo. هذا وتأتى أعيادهم فى مواعيد مختلفة، وكذلك أيام الصيام، باستثناء الاحتفالية التى يقيمونها بمناسبة مولد رسولهم محمد ويطلقون عليه المولد Maulud -ويكون فى اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث، فهم يقولون إنه وُلِدَ فى ذلك اليوم. يكفى ذلك لإمكان حساب التقويم، حيث يبدأ العد عند المسلمين من شهر يوليو فى عام ٦٢١ من ميلاد المسيح، وهو ما يعادل فى حساباتهم ٦٥٧ سنة من الزمن القيصرى/الرومانى ؛ وليس ٦١٣ عاماً عقب ميلاد المسيح، كما ذكرنا فى الطبعة الأولى من كتابنا "إفريقيا" - وذلك لوجود خطأ - لذا فقد تداركناه فى الطبعة الثانية التى ستصدر قريبًا[٢٩] .

---

(٢٧) لاحظ عدم دقة المؤلف؛ إذ يختلف توافق الشهور الهجرية مع الميلادية باختلاف العام. (المراجع).

(٢٨) لاحظ كذلك عدم دقة معلومات المؤلف حول الشهور الهجرية من حيث العدد، فهى اثنا عشر شهراً وليس ثلاثة عشر، ومن حيث كتابة الأسماء. (المراجع).

(٢٩) يُحسب للمؤلف تصحيح معلوماته الواردة فى كتاب "وصف إفريقيا"، وهو ما يدل على وجود وسط ثقافى على دراية بجوانب الحضارة الإسلامية. (المراجع) .

الفصل الثانى عشر

استيلاء الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل على مدن فى مملكة غرناطة منذ عام ١٤٨٢ وحتى عام ١٤٨٥.

يُعَد غزو الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل لمملكة غرناطة، الذى نسوقه فى هذا التأريخ – حتى لا نُخَلّف وراءنا أموراً قد يؤدى عدم سردها إلى إرباك القارئ – آخر الحروب التى خاضها الأمراء المسيحيون فى إسبانيا ضد الملوك المسلمين. أما سائر المعارك التى سبقتها فقد أتى ذكرها فى كتابنا "التاريخ العام لإفريقيا"، وذلك فى الكتاب الثانى من المجلد الأول. حينئذ كان يحكم غرناطة ملك وثنى شجاع من نسل آل الأحمر يسمى أبو الحسن وذلك قرابة عام ١٤٨٠ لميلاد المسيح الموافق ٨٩٢ لقيام مملكة العرب. وقد جمع جيوشه وأحدث خسائر فادحة فى مواضع أندلوثيا ومملكة مرسية، فى أثناء الحرب التى شنها الملكان الكاثوليكيان على ملك البرتغال. نظراً لعدم استطاعتهما القتال على كل الجبهات فقد عقدوا مع أبى الحسن هدنة قام بخرقها فى عام ١٤٨٢ لميلاد مخلصنا عندما نبهه جواسيسه إلى أن المسيحيين المقيمين على حدود الصخرة(٣٠) قد تخلوا عن حرصهم بموجب هذه الهدنة، وأن الفرصة باتت مواتية لاحتلال ذاك الحصن. شرع الملك المسلم فى تجميع قادته وجواسيسه وأرسلهم سراً

(٣٠) يرد اسم البلدة فى المصادر الإسبانية أحياناً Zahra، وهى من أعمال قادش).Cádiz (المراجع).

ليتسلقوا أسوارها ويتسللوا إليها فى إحدى الليالى حالكة الظلام. وبالفعل عندما سنحت الفرصة لتنفيذ رغبته، عبر القادة إلى داخلها، واحتلوا الحصن الملاصق للبلدة، وتعاملوا مع عمدتها(٣١)، وأسروا من وجدوهم من المسيحيين بعد مقاومة تكاد لا تذكر. شعر الملكان الكاثوليكيان بالأسى الشديد لتلك الخسارة. وتجنبًا لحدوث ضرر أكبر، اتجه الملكان لاحقًا إلى تلك البقعة - يدعمهما الاستقرار الذى ساد أراضيهما - عاقدين العزم والهمة التى لم تُهْزَم أبدًا، على مواجهة تلك الأمة التى سببت الكثير من المضايقات للشعب المسيحى، ومصممين ألا يكفا أيديهما عن القتال حتى يتأتى لهما غزوهم، واجتثاث اسم محمد وعقيدته من تلك الأراضى.

فى السنة نفسها التى بادر فيها المسلمون باحتلال الصخرة، أغار كل من ماركيز قادش والسيد بدرو بونثى ليون Pedro Ponce León ونائب حاكم أشبيلية السيد دييغو دى ميرلو Diego de Merlo وقادة أنتقيرة وأرشدونة وقادة مسيحيون آخرون من المناطق الحدودية على مدينة الحامة. وأسفرت الحيلة التى قام بها جندى موريسكى يدعى خوان دى باينا Juan de Baena عن نجاح رجل اسمه أورتيغا المتسلق Ortega escalador فى التسلل إلى داخل الحصن، والسماح لهؤلاء القادة بالدخول، والاستيلاء عليه عنوةً فى اليوم الأخير من شهر فبراير. على الجانب الآخر هرع الملك المسلم إلى تعبئة رجاله ظنا منه فى إمكانية استعادة الحصن مرةً أخرى، فاشتبك فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو لهذه السنة مع المسيحيين الذين أمّوا هذه الناحية لتقديم العون والمدد. وكان النصر حليف أبناء جلدتنا، وإن توفى أثناء المعركة السيد رودريغو خيرون Rodrigo Giron ابن السيد دييغو دى كاستيا Diego de Castilla قائد كاثايا Cazalla - الذى تولى فيما بعد منصب القائد العام لرهبانية قلعة رباح العسكرية - وآخرون غيره. بيد أن ذلك لم يكن سببًا فى تحقيق المسلم لمراده، فقد دافع المسيحيون

---

(٣١) النص الإسبانى يحتمل أنهم قد اتفقوا مع قائد الحصن على شىء ما، أو أنهم قد أخضعوه. (المراجع).

الموجودون داخل الحصن عن أنفسهم، ثم عاونهم الملك فيرناندو بتقديم المساعدة لهم. بعد هذا لاحق العدو وطارده حتى غرناطة، فاقتحم الغوطة ودمر البساتين وقطع الأشجار فى الأراضى المزروعة، وذلك للمرة الثانية فى ذلك العام. ثم استولى على بلدة تاخور Tajora وأشاع فيها الدمار، كما بسط سيطرته على برج قنطرة بينوس la puente de Pinos- حيث كانت توجد إلبيريا - ثم عاد أدراجه إلى قرطبة متوجًا بالانتصارات، بعد أن عزز تلك الحدود جيدًا، ونصّب كونت تينديًا السيد إينيغو لوبيث دى مندوثا Íñigo López de Mendoza عمدةً وقائدًا على الحامة.

فى ذلك الوقت الذى كانت حاجة المسلمين إلى الانسجام فيما بينهم شديدة، أذن الرب لقواتهم بالتضاؤل بسبب الفرقة والتشتت، وذلك لكى يَسْهُل على الملكين الكاثوليكيين محاربتهم. كان أبو الحسن شيخًا مريضًا، غارقًا حتى النخاع فى هوى امرأة مرتدة تزوج منها تدعى ثريا - Zoraya ليس لأن هذا هو اسمها ولكنها كانت شديدة الحسن حتى قارنوها بنجم السحر الذى يطلقون عليه الثريا - حتى دفعه عشقه إلى تطليق زوجته الأولى عائشة[٣٢] Ayxa، وكانت ابنة عمه. ومن فرط قسوته أمر بقطع رقاب بعض أولاده عند حوض من الألبستر ما برح قائمًا إلى يومنا هذا فى قصور الحمراء بإحدى قاعات بهو الأسود، وذلك بغرض إبقاء الملك بين أبناء ثريا. بيد أن عائشة، خوفًا منها أن يقتل أكبر أبنائها المدعو أبو عبدِ الله أو أبى عبدَ الله[*] - وكلاهما واحد - أبعدته عن جواره، فهرب سرًا فى قطع من الليل حيث نزل من إحدى نوافذ برج قمارش، مستخدمًا حبلاً مصنوعًا من مآزر نسائه وخمرهن. ثم حمله بعض الفرسان من بنى سراج إلى مدينة وادى آش؛ وقد أرادوا الإحسان إليه لأنهم

---

(٣٢) لا ندرى بالضبط هل كان اسمها عائشة أم فاطمة، فهناك وثائق خاصة بالأحباس يرد فيها اسم فاطمة. (المراجع).

(*) يظهر لنا هذا الموضع وغيره الحيرة والأخطاء التى وقع فيها المؤلف لعدم إلمامه بقواعد اللغة العربية. (المترجمة).

لم يكونوا على وفاق مع الملك على خلفية قتله بعض إخوانهم وأقربائهم، بحجة أن واحدًا منهم – بمعاونة البقية – وُجِدَ في قصره إحدى أخواته البكر. ولكن حقيقة الأمر أنه لم يكن يحبهم لأنهم من أقارب عائشة(٣٢)، ولهذا السبب لم يأمن جانبهم. أضحت تلك الأمور الدافع وراء اشمئزاز كل الأشخاص المهمة والرئيسة من أبي الحسن، وأدت إلى إحضارهم ابنه أبا عبد الله من وادي آش رغمًا عنه. في أثناء وجود الملك أبي الحسن في أحد الأيام في المروج أدخلوا عبد الله القصر وبايعوه ملكًا. عند

عودة الشيخ من الريف لم يرغبوا في استقباله داخل القصر، ناعتين إياه بالقاسي الذي قتل أبناءه وفرسان غرناطة من النبلاء. فقام هذا الأخير بالهرب مع قليل من رجاله إلى وادي ليكرين واللجوء إلى حصن مونتوخار .Mondeújar ثم قاتل ابنه في قسوة بالغة مستعينًا بقوة أحد إخوانه البواسل، وكان يدعى أيضًا أبو عبدِ الله أو أبا عبدِ الله(٣٣).

أودت هذه الحرب بحياة كثير من الفرسان ورجال المملكة الأساسيين، وظلت العداوة تتنامى بشدة مع تلك الخسائر في الأرواح، حتى أن أعداد الفريقين أخذت في التناقص إلا أن ذلك لم يردعهم، أو يحمل أيًا منهم على طلب العون من الملكين الكاثوليكيين، وذلك لكرههما العميق لكل ما هو مسيحي؛ بل إن كل واحد منهم على حدة كان يشن الحرب على المسيحيين قبيل ذلك. لمَّا سلكت الأمور هذا المنحى، وفي شهر مارس عام ١٤٨٣ ميلادي الموافق ٨٩٥ لقيام مملكة العرب أقدم كل من ماركيز قادش ورئيس رهبانية سانتياغو الحربية السيد ألونسو دي كارديناس Alonso de Cardenas وغيرهما الكثير من الفرسان على جمع رجالهم، ومهاجمة

(٣٢) هناك روايات كثيرة حول ما تعرض له بنو سراج، لكن الأقرب إلى التصديق هنا هو خشية أبي الحسن منهم، كونهم أقرب إلى زوجته الملكة. (المراجع)

(٣٣) هو أبو عبد الله الزغل. (المراجع)

حدود مدينة مالقة التى تقع باتجاه الشرق وتسمى الشرقية Jarquía. عندما أفاق مسلمو هذه الأراضى، وكان عددهم كبيراً، وأسرعوا مهرولين إلى ديارهم اشتبكوا معهم وأجهزوا عليهم، وقتلوا كلاً من السادة دييغو Diego ولوبى Lope وبيلتران Beltrán - وهم أخوة الماركيز - والسيدين لورينثو Lorenzo ومانويل Manuel - أبناء عمومته - وغيرهم الكثير من أقربائه الآخرين وأجرائه. كما اعتقلوا كلاً من كونت ثيفونتيس conde de Cifuentes وأخيه السيد بدرو دى سيلبا Pedro de Silva وغيرهم العديد من الفرسان.

كانت تلك هى المعركة التى أُطْلِق عليها روابى كوتار Lomas de Cútar، ووقعت صبيحة يوم الجمعة الموافق الحادى والعشرين من مارس. وقد قُتِلَ وأُسِرَ خلالها غالبية المسيحيين الموجودين بها أنذاك. انتشى الملك الجديد أبو عبد الله كثيراً بهذا الانتصار، فقرر التوغل بنفسه فى سائر أرجاء أندلوثيا - ظناً منه أن هذه الأراضى تفتقر إلى الحماية، نظراً للأعداد الكبيرة التى فُقِدَت فى شرق الأندلس. فجمع أكبر عدد استطاع الحصول عليه من الخيل والمشاة ، واصطحب السيد على العطار Alatar قائد لوشة ورافقه الكثيرون من فرسان غرناطة، لكى يحكم قبضته على اللسانة - وهى بلدة عمدة دونثيليس Donceles. وقد قص علينا بعض الشيوخ المسلمين إنه فى أثناء خروج الملك من باب إلبيرة اصطدمت سارية اللواء الذى كان يحمله بقوس الباب وتمزق، وأن العرافين أخبروه أن عليه العودة وعدم المضى قدماً لأنه سيلقى بأساً شديداً. وحين وصل إلى جادة بيّرو Beiro، اخترقت ثعلبة صفوف الجيش ومرقت على مسافة قريبة جداً من الملك، وهربت دون أن يتمكن أحد من قتلها. كان ذلك بالنسبة إليهم فألاً بالغ السوء، خلّف لدى العديد من المسلمين الوجهاء الرغبة فى التراجع، حيث قالوا إن هذه الحملة ستودى بهم إلى الفناء، بيد أن الملك لم يرد التوقف. إبان وصوله إلى اللسانة أمر بقطع الأشجار وأراضى القمح والكروم والبساتين الكائنة بالإقليم، وسلب كل ما تحويه تلك الأراضى. كان كونت قبرة Conde de Cabra موجوداً أنذاك فى بلدة

بايينا، فلما علم بقدوم العدو وما أحدثه من أضرار، هرول مسرعًا ليجمع أكبر عدد ممكن من الرجال، وعاد بهم إلى اللسانة لينضم إلى عمدة دونثيليس. عندما تنامى ذلك إلى مسامع الملك المسلم، حل فسطاطه وتراجع القهقرى إلى لوشة وبحوزته عدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة؛ أما المسيحيون فواصلوا تقدمهم -تدعمهم العزيمة أكثر من القوة - حيث كانت أعدادهم ضئيلة للغاية مقارنةً بأعدائهم. ثم بادر المسيحيون بالهجوم على المسلمين عند جدول يُقَال له مارتين غونثاليث Martín González يقع على بعد فرسخ ونصف الفرسخ من اللسانة، وذلك في شهر إبريل من العام ذاته. بما أن إرادة الرب شاءت للمسلمين النصر، فقد اعتقلوا الملك أبا عبد الله وقتلوا القائد على العطار وغيره الكثير من الفرسان المسلمين، واستردوا ما استولى عليه أولئك من الفيء، وعادوا إلى قراهم فرحين فائزين محملين بالمغانم، بعد أن انتزعوا في ذاك اليوم تسع رايات.

لم يمض وقت طويل عقب أسر الملك المسلم حتى فُتِحَت هذه المملكة، حيث كان حال المسلمين يشوبه الارتباك. لذا أقدم الملك فيرناندو في تلك السنة على اقتحام غوطة غرناطة بجيشه وعاث فسادًا في الأراضي المزروعة والبساتين والحقول والكروم، وكذلك حدود بلدتي إيّورا ومونتي فريّو Montefrio، كما حاصر قرية تاخورا التي كان المسلمون قد أعادوا تحصينها، وحاربها واستولى عليها بالقوة. ثم أمر بإعمال الدمار فيها وتخريبها مرةً أخرى، ليعود بعد ذلك إلى قرطبة ليقضي بها فصل الشتاء. قامت منافسة شرفية بين كل من كونت قبرة وعمدة دونثيليس حول من سيستحوذ على الملك الأسير، حيث أنعم عليهما الملكان الكاثوليكيان بذلك تحيةً لهما وإقرارًا بمعروفهما، آمرين إياهما بحمله إلى قرطبة وهو ما قاما به بالفعل. ما إن أضحى ذاك المسلم بتلك المدينة، حتى أرسل إلى الملكين نفرًا من الفرسان آملاً أن يطلقا سراحه، وفي المقابل يصير أحد رعاياهما ويدفع لهما الجزية في كل عام، وقال إنه سيحارب تحت رايتهما كل مسلم يأبى الخضوع لهما. وقد تباينت آراء المستشارين حول هذا الشأن، وفي

النهاية استُحْسِن وأُقِرَّ الرأى الذى يرى الاستجابة لطلب الملك؛ لأن وجود ملكين متناحرين فى مملكة غرناطة يعزز من وضع المسيحيين وقدرتهم على قتالهما. وهكذا لم يكتفِ الملكان الكاثوليكيان بتلبية رجائه فحسب، بل إنهما عرضا عليه معاونته على محاربة أبيه وكذا بقية المدن التى ثارت على حكمه خلال فترة أسره، لذا فقد قاما بمنحه حريته وأرسلاه إلى أرضه.

لدى وصول الملك المسلم إلى غرناطة لم يلق من الأهالى الترحاب الشديد الذى كان يتوقعه؛ فعندما علم أولئك بالاتفاق الذى عقده مع الملكين المسيحيين، وأنه بات أحد رعاياهما، أمسى هؤلاء الذين رفعوه إلى سدة العرش أول من انقلب ضده، وانحازوا إلى صف عمه أبى عبد الله – الذى وقف بجانبه أتباع الملك القديم – وقرروا أن يشنوا حربًا جديدةً على المسيحيين. من أجل التمييز بين العم وابن أخيه، وكان كلاهما يحمل الاسم نفسه، أُطلِق على ابن الأخ الذى كان فى الأسر بغرض التحقير الزُغيبى – وتعنى بالعربية التعس؛ كما لُقِّبَ عمه بالزغل وهو أحد مسميات الشخص المغوار، وهو ما سننعته به من الآن فصاعداً على مدار هذا الكتاب.

قام الغرناطيون فيما بعد بالتأليف بين خمسة عشر من العُمَد الرئيسين بتلك المملكة، وجمعوا لهم عدداً هائلاً من الفرسان والمشاة، ومعًا قصدوا حدود أندلوثيا، متعللين بأن مليكهم الذى كان فى الأسر ليس بوسعه إلزامهم بحالة السلم أو إخضاعهم لأى شرط من أى نوع. بيد أن حملتهم لم تسر على النحو المأمول، حيث خرج لويس إيرنانديث بويرتوكارّيرو Luis Hernández Puertocarrero سيد بالما Palma للقائهم على رأس أهالى الثغور وانتصر عليهم. فقام بقتل وأسر أعداد ضخمةً من المسلمين ، من بينهم القادة الرئيسيين، وفاز بخمسة عشر لواء من ألويتهم. وقد اغتنم ماركيز قادش شيئًا من فيء هذا الانتصار، حيث انطلق فى أثر أولئك الأعداء وعثر على من فروا من الخراب والدمار، فأعمل فى كثير منهم القتل والأسر، ومضى إلى بلدة الصخرة فتسلق أسوارها واستحوذ عليها بقوة السلاح، ثم قتل عمدتها ومن كان بصحبته من الرجال وعمَّرها بالمسيحيين.

مثلت كل تلك الأحداث عاملاً ساعد على تنامى مشاعر مقت الغرناطيين للزُغيبى الذى لم يعد يشعر بالأمان فى المدينة؛ لذا فقد أقدم على الاختباء مع نسائه وبنيه فى ألمريّة . لما رأى منه الغرناطيون تلك الفعلة أرسلوا فى طلب أبى الحسن - الذى كان موجوداً فى موندوخار - ونصّبوه ملكًا عليهم من جديد لتبدأ حربًا شعواء بين الأب والابن. فى عام ١٤٨٤ من ميلاد المسيح الموافق ٨٩٦ لقيام مملكة العرب جمع الملك الكاثوليكى أمراءنا واقتحم أراضى مالقة، فقطع أشجار البساتين والكروم والأراضى المزروعة وأفناها، وبحلول عيد القديس خوان San Juan فى شهر يونيو كان قد استولى على بلدة ألورا Aloraبقوة السلاح - رغم أن البعض يزعم أن ذلك قد حدث فى يوليو. ثم أتبعها فيما بعد بلدتى ألوثانيا Alozania وسيتينيل Setenil، حيث ظفر بتلك الأخيرة فى يوم واحد وعشرين من سبتمبر الموافق لعيد القديس ماتيو San Mateo. وكان قد بعث كونت لوثانو Lozano فى تلك الآونة لاستطلاع أحوال قرية كاثارابونيلا Cazarabonela، فـقُـتِلَ على أيدى المسلمين. بما أن الضرورة دعت لاستكمال الحروب فى تلك الأنحاء التى يُطْلَق عليها منخفض مالقة Hoya de Málaga فى العام التالى، ذهب الملك الكاثوليكى إلى إشبيلية لقضاء فصل الشتاء، ودبر فى تلك السنة حيلةً ما بغرض احتلال لوشة ولكنه لم ينفذ الخطة.

مع حلول ربيع عام ٤٨٥ الموافق ٨٩٧ لقيام مملكة العرب عاود الملك فيرناندو الإغارة على منخفض مالقة، فقطع أشجارها ودمر مزروعاتها على النحو الذى سلكه فى العام المنصرم. مع مجىء شهر مايو سلّمه المسلمون حصنى كوين Coin وكَرتمة Cártama، حيث قُتِلَ بدرو روثى دى ألاركون Pedro Ruiz de Alarcón قائد قوات الملك. وكذلك فقد بسط الملك سيطرته على بنى ماكِس (بنى ماكسن؟) Benamaquex، وشورّيانا Churriana، وبوبياريا Pupiaria، وكامبانيليس Campaniles، وفَضَالة Fadala، ولاودين Laudín، وغوارو Guaro؛ ونصّب عليها قادة من أتباعه. ثم عرج على مدينة رندة وخاض ضدها معارك ضارية؛ ورغم أنها كانت تبدو منيعة نظرًا لموقعها ولأنها كانت تأوى أعدادًا غفيرة من رجال الحرب المهرة، فقد سلّمها المسلمون يوم

الأحد الموافق لعيد فصح بينتيكوستس Pentecostés (*) . فى أعقاب الفوز بالمدينة لم يرغب العمدة المسلم الموجود بالقلعة فى تسليمها، إلا أن الملك أمر بتسلق أسوارها وظفر بها عنوةً. كان أول من صعد جدرانها ألونسو إيرنانديث فاخاردو Alonso Hernández Fajardo، الذى أنعم عليه الملكان الكاثوليكيان بالكثير من العطايا.

لاحقًا استسلمت قرى وقلاع خونكيرا Junquera، وبورغوBurgo، وموندا Monda، وتولوش Tolox، ومونتيخاكى Montejaque، وحصن المارة Hiznalmara، وكارديلا Cardela، وبنى أوخان Benaoján، ومونتيكورتو Montecorto، وأوديتا Audita، وغيرها من المناطق الجبلية وأبارال. وقد رغب المسلمون الذين كانوا يقطنوها فى التحول إلى مدجنين، والدخول تحت كنف الملكين الكاثوليكيين، اللذين استقبلوهما وسط أجواء يسودها الصدق وأقسم المسلمون على كتابهم أن يصبحوا من رعاياهما المخلصين، وأن يلتزموا بأوامرهما وأحكامهما، ويحاربوا تحت رايتهما، ويسددوا كل الضرائب والرسوم التى اعتادوا دفعها للملوك المسلمين بأمانة وإخلاص دون خداع أو تدليس. وكذلك فقد أعطى الملكان الكاثوليكيان الأمان لجميع المسلمين سواسيةً دون التفريق بين من جاءهما طواعيةً لينضم إلى رعاياهما ومن أجبروه هم على الاستسلام. كما أسبغوا عليهم وعلى ممتلكاتهم حمايتهما الملكية، ووعداهم أن يسمحا لهم بالحياة وفقًا لشريعتهم، وأنهما لن يوقعا عليهم أو يأذنا لأى كائن أن يلحق بهم أى جور أو ضيم، وأن دعاواهم وقضاياهم سينظرها قضاتهم وفقهاؤهم وفقًا للقانون الذى يسمونه "الشرع" Xara. وقد منحاهم رخصة يمكنهم بمقتضاها إجراء المعاملات والتعاقدات فى حرية تامة فى شتى أرجاء وبقاع ممالكهما، طالما لا يدلفون إلى الحصون والقرى

(*) احتفال بحلول الروح القدس تحييه الكنيسة يوم الأحد الموافق مرور خمسين يومًا على عيد فصح القيامة المجيد - إذا ما حسبنا كلا اليومين. وعادةً ما يكون بين يومى العاشر من مايو والثالث عشر من يونيو. (المترجمة) Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II, pag. 1568.

المسورة قبل مغيب الشمس بساعة واحدة إلا بأمر منهما أو من عُمَد القرى وحكامها. وفي الوقت نفسه فقد أذنا لكل من يأبى العيش في تلك الأراضي ببيع أملاكهم، والسير مع نسائهم وبنيهم وعائلاتهم إلى شمال إفريقيا، مانحين إياهم سفنًا ليعبروا فيها آمنين بعد أن أمروا كافة قادة وحكام المناطق الحدودية بحسن معاملتهم؛ لذا فقد شهد العام نفسه استسلام تسع عشرة بلدة في أبارال Havaral، وسبع عشرة بلدة في جبال غاوسين Gausín واثنى عشرة في جبال بيّالوينغا Villaluenga، وكذلك قرية كاثاربونيلا إلى الملكين الكاثوليكيين وذلك بالشروط ذاتها. وفي الحادي عشر من يونيو الذي يوافق عيد القديس بيرنابيه San Bernabé خضعت مدينة مربلة، وكذلك قرى مونتيمايور Montemayor، وكورتيس، وألاريثاتي (العريشة؟)، وغيرها عشرة مواقع أخرى منتشرة حول المدينة. ثم انتقل الملك لاستطلاع أحوال مالقة، فهدم حصن بني المادالا Benalmadala، وعين قادة من أتباعه على باقي المواقع، ثم عاد ذلك العام ليقضي فصل الشتاء في قرطبة.

في تلك الآونة كان الزُغيبي موجوداً في مدينة ألمريّة. وحينما أدرك الملكان الكاثوليكيان الأهمية البالغة لاستمرار المعارك الدائرة في تلك الأرجاء من أجل تشتيت قوى العدو، قاموا بتزويده بالأموال وكل الأمور الأخرى اللازمة لذلك، وأمروا قادة وحكام المدن والقرى الحدودية المتاخمة بالوقوف إلى جانبه وإعانته على البقاع التي تخرج عن طوعه. فشرع في محاربة أبيه وعمه بضراوة معتمداً على ما لقيه من مدد. حدث بعد ذلك أن فطن الغرناطيون إلى أن أبا الحسن قد فقد بصره، وأعاقه كبر السن والأمراض، ولم يعد أهلاً لقيادة المملكة أثناء كل تلك الحروب الطاحنة، فتخلوا عنه وقصد كل الزعماء الأساسيين الزغل - لما عرفوا عنه من بسالة وعنفوان - وبايعوه ملكًا عليهم معلنين أن الزغيبي ليس جديراً بذلك المنصب، وذلك لتحالفه مع الأمراء المسيحيين المعادين لشريعتهم. ثم أخرجوا أبا الحسن من المدينة ومعه أهله، وأرسلوه إلى حصن موندوخار.

كانت هذه نقطة بداية أخر فصول مسلسل القضاء على مسلمي المملكة. حيث اتفق الزغل، مدفوعًا برغبته في الانفراد بالحكم، مع نفر من فقهاء ألمرّية ليسهلوا له العبور سرًا في إحدى الليالي إلى المدينة حتى يتمكن من قتل ابن أخيه أو اعتقاله. عندما حُذِّر ذاك الأخير من تلك الخطة، امتطى جوادًا سريعًا وفر إلى أراضي المسيحيين في الليلة ذاتها التي شرع فيها الخائنون في تنفيذ خيانتهم. دخل الزغل إلى ألمرّية واحتل القلعة، ثم هرع إلى القصر، معتقدًا أنه سيجد به خصمه، فلما لم يعثر عليه تملكه غضب وقسوة بالغة دفعته إلى الإجهاز على أخ له صغير كان الزُغيبي قد اصطحبه معه ليحول دون أن يقتله والده كما فعل ببقية إخوته، كما أنه أمر بذبح كل من وقعت عليه يداه من أعضاء الفريق المعادي له. كان لذلك الغدر وتلك الوحشية أبلغ الأثر في نفس الزُغيبي، حيث لم يستطع الفكاك من تأثيرها والمضي قدمًا في التحالف مع عمه أو الوثوق به، على الرغم من أنه سنحت له العديد من الفرص التي كان سينجم عنها فائدةٌ ونفعًا. بعد أيام قلائل من وقوع ذاك الحدث توفي أبو الحسن في قلعة مونديخار. أما الزغل فقد جمع كل قوات تلك المملكة وأخذ يقاتل ضد المسيحيين، وتمكن من تحقيق عدة انتصارات في ذلك العام، كان أحدها عندما قصد الملك فيرناندو قرية موكلين في شهر سبتمبر ، حينئذ خرج ملك غرناطة ودارت معارك بينه وبين كونت قبرة على مقربة من تلك البلدة، أودى خلالها بحياة شقيق الملك السيد غونثالو دي كوردوبا Gonzalo de Córdoba، وأعمل الكثير من الخراب.

لذلك ترك الملك تلك الأنحاء على حالها وقصد في طريق عودته بلدتي كامبيل Cambil، وأبارال المنيعتين، اللتين كانتا تشكلان جبهة المسلمين في مواجهة جيّان فحاصرهما وقاتلهما باستخدام المدفعية حتى استسلمتا له، أما العمدة المسلم ومن صحبه من رجال الحرب في الداخل ففروا إلى غرناطة. كما أن حامل مفاتيح رهبانية القنطرة Alcántara، الذي كان موجودًا في مدينة الحامة، تسلق أسوارها وفرض سيادته عنوةً على قرية صالحة التي تقع على حدود بلش؛ لذا فقد أمر الملك بتقوية تحصينات تلك القرى ثم ذهب ليقضي شتاء ذلك العام في كل من طليطلة وقلعة عبد السلام Alcalá de Henares.

الفصل الثالث عشر

ما قام به الملكان الكاثوليكيان فى أثناء غزو مدن مملكة غرناطة فى عام ٨٦.

عاود الملك الكاثوليكى اقتحام مملكة غرناطة فى العام الذى يليه – ١٤٨٦ – وحاصر مدينة لوشة، وعلى الرغم من أنه كان قد سبق له فعل الأمر عينه لعدد من السنوات دون أن يفلح فى الاستيلاء عليها؛ كما أن المسلمين كانوا قد تمكنوا فى أثناء الحصار من قتل السيد روديريغو تييّث خيرون Rodrigo Téllez Girón رئيس رهبانية قلعة رباح الحربية[٣٥] بسهم مسموم فى الثالث من يولية عام ١٤٨٢، فإن الملك هذه المرة ثابر واستمر فى محاصرتها وقام بالعديد من الاشتباكات والمعارك القوية، حتى دفع العمدة المسلم القائم بشئونها إلى الاستسلام وذلك فى يوم الإثنين الموافق التاسع من شهر مايو من العام ذاته. بعد خضوع لوشة تبعتها فى الاستسلام كل من إيّورا، وموكلين، ومونتيفريّو، وكولوميرا، حيث انقطع المسلمون عن حماية تلك المدن وقصد المسيحيون مدينة غرناطة. عندئذ قام جلالته بتزويد كل المدن التى استسلمت بالمحاربين ثم أسلم كل منها إلى عمدة، وعاد منتصراً إلى قرطبة.

أثناء اضطلاع الملك فيرناندو بتلك الفتوحات على رأس جيشه، كانت الملكة الكاثوليكية إيسابيل تزوده بالعتاد والمؤن، فأضحت تتنقل من مكان إلى آخر لكى تمد

---

(٣٥) رغم هذه الحقيقة التاريخية فإن رئيس الرهبانية يظل يظهر فى رواية "الحروب الأهلية فى غرناطة" إلى قبيل لحظة سقوط المدينة فى يد الملكين الكاثوليكين (المراجع).

القوات الملكية بما تحتاج إليه؛ لذا فقد تمتعت القوات دومًا بوفرة فى الزاد والأسلحة والذخائر والأفراد، حيث أظهرت الملكة حماسًا واجتهادًا هائلين.

فى الوقت الذى سعى فيه الملكان الكاثوليكيان لتحقيق الفتوحات الهادفة لإرضاء الرب وأمه القديسة، أخذ المسلمون يتناحرون فيما بينهم بشراسة. أما الزُغيبى الذى انزوى فى بلش البيضاء Vélez el Blanco متمتعًا بالحظوة لدى مسيحيى الثغور، فشرع يقاتل فى تلك الأرجاء ضد الزغل الذى كان يفوقه قوةً؛ إذ كان قد بسط سطوته على غرناطة وسائر مدن تلك المملكة، وبات يقتل من يدين لغيره بالولاء. بيد أنه لم يكن فى قوة ونفوذ مليكنا الكاثوليكى؛ لأن قواته كانت مقسمة بين جبهتين، وهو ما كان يعنى الكثير لصاحبىَ الجلالة؛ لأنه يمكنهما من مجابهة تلك الحشود على النحو الذى يتراءى لهما. بما أن ذاك الأمر سار وفقًا لمشيئة الرب، فقد شاءت إرادته السماوية إحداث فرقة وشقاق آخر كبير بين صفوف المسلمين، حيث أقدم الزُغيبى مغامرًا على فعلة لا يقل التهور فيها عن الخطورة.

لقد فطن ذاك الملك إلى أن عدوه تقع تحت يديه غالبية بقاع المملكة وأفضلها، وأنه لا تجب له الطاعة فى أى من المدائن، كما أن الفرسان الذين تبعوه وخدموا تحت لوائه آخذين فى التخلى عنه دون أن يعبئوا بموتهم شبه المحقق، ومفضلين ذلك على الانضمام إلى حملته. لذا فقد اتفق على أن يتسلل خفيةً فى إحدى الليالى وبصحبته نفر ممن بقى معه من الفرسان إلى مدينة غرناطة، فشرعوا يسيرون فى الجبال الوعرة ذات التضاريس الصعبة بعيدًا عن طريقهم حتى وجدوا أنفسهم فجأة فى البيازين – تاركا وراءه سائر الركب ممن داخلهم الفزع عند رؤية الأسوار، وقد توجه هو ومعه خمسة رجال فقط إلى باب فحص اللوز، وبدأ فى التحاور مع حراسه؛ فأخبرهم بأمور شتى حملتهم على التثبت من هيئته وحضرته الملكية، وإجابته إلى كل ما أمرهم به، دون أن يكون بينهم أى اتفاق مسبق. ففتحوا له الأبواب، وأدخلوه هو وصحبه؛ فقضى تلك الليلة متنقلاً بين أبواب منازل الزعماء من أصدقائه الذين يفضلونه عن غيره بالتأكيد، فأخذ يرجو البعض ويمنّى البعض الآخر، حتى حرضّهم على حمل السلاح.

ثم سلك سائر الجيران مسلكهم، وفى صبيحة أحد الأيام أشهروا أسلحتهم وأغلقوا فتحات الشوارع والمخارج التى يتعين على أهل المدينة اللجوء إليها للخروج منها، كما أنهم أخذوا فى التزود بكل الأشياء التى تلزمهم للدفاع عن أنفسهم.

على جانب آخر قام الزغل، بعد أن انتشر فى المدينة نبأ وجود ابن أخيه فى البيازين، فى شن الهجوم عليه، مستعينًا بأكبر عدد ممكن من الرجال. خرج هؤلاء وأولئك إلى ساحة القتال، ودارت بينهم معركة حامية الوطيس، لقى خلالها الكثيرون من كلا الفريقين مصرعهم. وقد اضطر الزُّغَيبى - صاحب اليد السفلى، لقلة عدد جنوده - إلى التقهقر حتى البيازين والتحصن داخلها. أما الزغل فقد جَنَّدَ كل طاقاته لمجابهته، فأخذوا يتناحرون فى قسوة بالغة على ذاك المنوال لفترة تربو على خمسين يومًا، كانت أرواح الرجال تُحصد فيها دون داع. بعد ذلك أرسل الزُّغيبى فى طلب المدد والغوث من الملكين الكاثوليكيين، اللذين كانا قد قصدا جليقية ليحجا ذاك العام إلى كنيسة القديس سانتياغو، واستطاعا فى طريقهما السيطرة على بونفيرادة Ponferrada وغيرها من المدن والقلاع. أمر صاحبا الجلالة القائد بدرو إنريكيث Pedro Henríquez أن يغيثهما بقواته، فجمع هذا الأخير أكبر عدد تسنى له من الخيل والمشاة، وتوجه إلى غرناطة حيث اشتبك مع مسلمى الزغل الذين خرجوا للقائه. كما أنه زَوَّدَ البيّازين بخمسمائة من حملة البنادق المسيحيين ليحافظوا بحماستهم على ولاء أتباع الزُغيبي، وقد تمكن من التراجع حتى منطقة الحدود دون أن تلحق به خسائر.

بينما كانت تلك الأحداث تدور فى غرناطة، غادر الملك فيرناندو مدينة قرطبة فى عام ١٤٨٧ متوجهًا لمحاصرة مدينة بلش مالقة Vélez Málaga، التى أُطلق عليها هذا الاسم لقربها من مالقة، وليس لوقوعها داخل نطاقها. حيث حاصرها بعد الاحتفال بعيد الفصح المجيد بيوم واحد، ليوافق التاريخ التاسع عشر من إبريل. حينئذ أدرك فقهاء غرناطة وشيوخها أن المسيحيين يحتلون مدن وقرى المملكة ويحصنوها، بينما المسلمون مشغولون بالتناحر فيما بينهم، لذا فقد اجتمع زعماؤهم الأساسيون وصعدوا

في يوم من الأيام إلى قصر الحمراء، ودارت بينهم وبين الزغل مناقشة طويلة قالوا له فيها: "سيدى، لماذا تعمل جاهداً لتنصيب نفسك ملكاً، إذا كنت ستترك الأرض التى ستملكها تضيع سدى؟ لقد أمّ المسيحيون مدينة بلش لمحاصرتها، وإذا ما خسرتها ستفقد معها مالقة وكل ما تبقى من بلدان المملكة. إن ابن أخيك موجود فى البيّازين، وهو يؤخرك ويعطلك مستعيناً بإمدادات أعداء ديننا، بينما يزداد الملك المسيحى سطوةً ونفوذاً. فلترحم هذا الشعب، واعقد مع ابن أخيك صلحاً أو هدنة لكى يتم التخلص من العدو المشترك، حتى لو فقدت شيئاً من حقك الشرعى". كانت تلك الدوافع كافية لتحريك مشاعر العطف والشفقة لدى الزغل، فأجابهم بأنه عليهم التوجه لاحقاً إلى ابن أخيه للتفاوض معه لأنه سيُسَر كثيراً إذا ما وُجِدَت طريقة لرأب الصدع وإحلال السلام معه، كما أنه سيقدم له السمع والطاعة ولسوف ينضم إلى لوائه. نُقلَت هذه الإجابة فيما بعد إلى الزغيبى عن طريق الفقهاء والشيوخ عينهم، بيد أنه رد عليهم فى حزم وثبات أن عِظَم الخيانة والفظائع التى اقترفها عمه بحقه هو وصحبه لن تحمله على الوثوق بكلمته أبداً، أو الرغبة فى عقد أية هدنة أو مصالحة تحت أى ظرف كان، ثم صرفهم وهم يجرون أذيال الخيبة.

عندما تنامى إلى علم الفقهاء والشيوخ أن الملك فيرناندو يواصل حصاره العنيف الخانق على بلش، وأن الملكين المسلمين لن يصبحا على وفاق، طلبوا من الزغل بإلحاح أن ينقذهم، وعلى الرغم من حيرة هذا الأخير -إذ لم يكن يريد أن يترك غرناطة دون حماية- فان محاولاتهم لإقناعه كانت من الكثرة والإلحاح إلى الحد الذى دفعه أن يقرر التوجه لإنقاذ مدينة بلش، وذلك لاسترضائهم وإدخال السرور على نفوسهم. فخلّف وراءه الحمراء بعد تحصينها وتأمينها ، ثم زاد من دفاعات نقاط الضغط التى أحاط بها البيازين آنفاً، وخرج على رأس عدد من الفرسان يصحبهم أكثر من عشرين ألفاً من المشاة، ظنّاً منه أنه سيفاجئ القوات الملكية المسيحية على حين غرة، وسيهجم عليهم بغتةً فى أشد بقاع الجبل الأكبر Sierra Mayor وعورةً وصعوبةً. لكن الملك فيرناندو كان على دراية بالأمر، وكانت طلائعه متمركزة على النظام الأمثل، وكانت

معسكراته ذاخرةً بالمؤن، فخرج للقائه، وهزمه وأجبره على التقهقر حتى مدينة ألمنكب بعدما ألحق به خسائر فادحة. أما ذاك المسلم فإزاء عدم استشعاره للأمان هناك، فقد انتقل بعد ذلك إلى مدينة ألمرِية، ومنها عاد أدراجه لاحقًا إلى وادى آش، دون أن يجرؤ على الرجوع إلى غرناطة؛ لأن الغرناطيين حيال علمهم بهزيمته، ورغبةً منهم فى إحلال السلام، بايعوا الزُغيبى ملكًا وسلموه الحمراء وباقى البقاع. وقد أمر ذاك الأخير لاحقًا بقطع رقاب أربعة من أهم زعمائها الذين كانوا قد خالفوه وعارضوه.

بعدها أخبر أبو عبد الله الملكين الكاثوليكيين بتلك الواقعة، وطلب منهم الأمان لكل مسلمى غرناطة وغيرها من بقاع المملكة، لكى يعاودوا مزاولة أعمالهم وتجارتهم وتعاقداتهم سالمين فى الأراضى المسيحية. فلما أجابوه إلى طلبه فى حفاوة وحماس بالغ، أكد لهم ما كان قد وعدهم به سلفًا من أنه – إذا ما سيطروا على ألمريّة وبياسة ووادى آش، حيث معقل الزغل – سيسلم لهم كذلك مدينة غرناطة، فى غضون ثلاثين يومًا بعد أن يؤمِّنوا أماكن وقرى بعينها ليعيش فيها. سَعِدَ الملوك بتلبية سائر رغباته، وبعدها شرعوا فى إرسال كتب الأمان إلى عمد وحكام البقاع الحدودية، آمرين إياهم بحسن معاملة أتباع الزغيبى وأن يكفلوا لهم حرية الحركة والتجارة فى شتى أرجاء البلاد. علاوةً على ذلك فقد بعثوا إخطارات إلى المدن والقرى الموالية الزغل مفادها أنه عليهم الاستسلام للزُغيبى فى غضون مهلة قدرها ستة أشهر، منذرين إياهم أنهم إذا لم يستجيبوا، فسوف يحاربونهم ويحتلوا مدنهم.

الفصل الرابع عشر

مواصلة الملكين الكاثوليكيين فتوحاتهما فى مملكة غرناطة، وفرض نفوذهما على مدينة بلش مالقة وغيرها.

من جهة أخرى قام مسلمو مدينة بلش، بعد أن فقدوا الأمل فى إنقاذهم واستشعروا الضغط الشديد الذى مورس عليهم، بتسليم المدينة إلى الملك فيرناندو، وذلك يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من شهر إبريل لسنة ١٤٨٧ لميلاد المسيح - وهو عام ٨٩٩ لقيام مملكة العرب. على الرغم من أن هناك من يزعم أن التاريخ كان العاشر من ذاك الشهر. تقع هذه المدينة على سفح جبل منتميس، على بعد نصف فرسخ من البحر، وقد أطلق عليها القدماء اسم مينيبا Meneba، ولكن هذه الأخيرة لا توجد فى نفس المكان، بل تقع على رابية هى أقرب إلى الغرب، حيث يمكن رؤية بعض الأبنية القديمة.

فى أعقاب فتح مدينة بلش، الذى أبلى خلاله الملك الكاثوليكى خير بلاء كفارس قوى تملأه الحماسة، حتى أنه وصل فى أحد الاشتباكات التى خاضها إلى باب المدينة وطعن بالرمح مسلمًا كان قد قتل أحد غلمانه؛ فقد استسلمت قرىً وحصون منتميس وقمارش وكانيَّاس Canillas وناريخا Narija وكومبيتا Cómpeta والموخيَّة Almojía ومايناتى Mainate وحصن أوتى Iznate وبيناكى Benaque وابن عائلة Abní Aila وبن أداليد (بنى خالد؟) Ben Adalid وتشيمبيتشينليس Chimbechinles وبيدوبيل Pedupel وبايرو وسيناتان Sinatán وبنى كُرَّام Benicorram وكارخيش Carjix وبواس Buas وكاسامور Casamur وأبيستار Abistar وخاراراش Jararax وكوربيلا

Curbilaوروبيتى Rubite ولاكوث الخضراء Lacuz el Hadara والكوتشايدة (القشيدة) Alcuchaida ودايماس Dalmas والبرج el Borge وبورغاثا Borgaza وماتشار Máchar وأخر Hajar وكوتيتروش Cotetrox والحدق Alhadac والمديتة Almedita وأبرينا Aprina وألاوتين Alautin وبيريانا Periana ومارو Maro وغيرها الكثير فى نواحى مالقة وأراضى بلش.

بعد ذلك منح الملكان الكاثوليكيان نفس الشروط التى قُدمَت لمدينتى رندة ومربلة وكذلك القرى والبقاع الواقعة فى دائرتها. فيما بعد عين الملك الكاثوليكى عمده ونصّب رجال جيوشه على الحصون، ثم توجه لمحاصرة مدينة مالقة التى تبعد خمسة فراسخ إلى الغرب من بلش، وفرض عليها حصاراً فى اليوم السابع عشر من شهر مايو للعام ذاته. قاومت تلك المدينة فترة طويلة، وتلقت أفدح ضرر وأبلغ خسائر بين مدن المملكة لما حوته بداخلها من أعداد غفيرة من الجنود، لكنها استسلمت فى نهاية الأمر. وقد دلف إليها كل من الملك فيرناندو والملكة إيسابيل -اللذين كانا مشاركين فى الحصار- يوم عيد القديس لويس San Luis الموافق التاسع عشر من شهر أغسطس من نفس السنة، بعد أن بسط عليها المسلمون سيطرتهم طوال سبعمائة وسبعين عامًا؛ وقد أُسِرَ كل من فيها من المسلمين. لاحقًا استسلمت شتى قرى وبقاع الشرقية وأويًا Hoya، التى لم تكن قد أسلمت زمامها من قبل. حينئذ نصّب عليها الملكان عمدهما وجنودهما ، وعمّرا المدينة بالمسيحيين قبل أن يتوجها مكللين بالانتصار لقضاء فصل الشتاء فى سرقسطة Zaragoza بأراغون.

الفصل الخامس عشر

كيف تابع الملكان الكاثوليكيان فتوحاتهما، وما أحرزاه فى الناحية الشرقية من تلك المملكة خلال عام ١٤٨٨.

فى أعقاب إنهاء الملكين الكاثوليكيين للحرب التى دارت فى الجانب الغربى لتلك المملكة، عاودا تجميع صفوف جيشهما فى مرسية فى عام ١٤٨٨ ميلادية. حيث انطلق مليكنا فيرناندو صوب الناحية الشرقية التى تضم كل من بيرا وغويسكار وألمرية وبسطة ووادى آش، وكانت جميعها مواليةً للزغل، وشن عليها حربًا ضروسًا. نظرًا لأن الملك المسلم لم يكن بالقوة التى تتيح له الخروج لملاقاته، فقد استسلمت فيما بعد مدينتا بيرا وموخاكار، وقد حدث الأمر عينه مع مدن وقلاع لاس كويباس Las Cuevas، واويركال Huércal، وساخنة Sagena، وألباركا Albarca، وبيدار Bedar، وسيرينا Serena، وكابريرا Cabrera، ولوبريل Lubrel، وأولولا Ulula، وأوبيرا Overa، وسورباس Sorbas، وتيريسا Teresa، ولوثاينا Lozaina، وتورياس Torrillas، وأويونكى Huyunque، وسويبروSuebro، وبيليفيك Belefic، ونيخار Níjar، وبيركال Vercal، وبلش البلانكو، وبلش الروبيو Vélez el Rubio، وكانتوريا Cantoria، وأوريا Oria، وخيركوس Jércos، وألبوش Albox، وألبورياس Albóreas، وبنى أندادالة (عبد الله؟) Beni Andadala، وبنى طرف التحليد Beni Taraf Atahelid، وأتارديا Atardia، والهابية Alhabia، وبنى الوزير Beni Alguacil، وبنى ليبرى Beni Libre، وبنى ثانون Beni Zanón، وبنى مينا Beni Mina، وألمارتشث Almarchez، وكوتوباو Cotobao، وبنى كالغاد Beni Calgad، وليوْخار Leujar، وفينيس Fines ، وغيرها

الكثير. أما المسلمون فقد أضحوا مدجنين ورعايا لأصحاب الجلالة بنفس الشروط التى طُبِّقت على غيرهم.

بعد الانتهاء من ذلك، خرج الملك ليتعرف من جديد على مدينة ألمريّة ويستكشف بسطة؛ وقد استطاع فى طريقه أن يغنم مدن غيكا Gueca، وأورثى Orce، وغاليرا، وكاستيّيخا Castilleja، وبنى ماوريل Beni Maurel، ثم عين عليها جميعًا ولاته. وقتئذ كان الزغل فى بسطة، وحينما أتى رجال الملك لاستكشاف المدينة، طلع المسلمون لملاقاتهم خارجها، وبدءوا معركة حامية الوطيس ضد المسيحيين، قُتِلَ خلالها السيد فيليبى دى أراغون Felipe de Aragón رئيس رهبانية مونتيسا Montesa العسكرية وابن شقيق الملك فيرناندو، فهو الابن غير الشرعى لشقيقه الأمير كارلوس Carlos؛ رغمًا عن ذلك فقد تحقق لنا[٣٦] النصر. فيما بعد واصل الملك مسيرته صوب غويسكار، التى أسلمها له المسلمون لاحقًا. هنالك ترك الملك الحصون مزودة بالمؤن وتوجه إلى مدينة ديل كامبو Medina del Campo لقضاء فصل الشتاء، وذلك لتنظيم الشئون التى تسهم فى إدارة الممالك التى يحكمها. بنهاية هذا العام، وتحديداً فى العاشر من أكتوبر استطاع الظفر ببلاسينثيا Plasencia على أيدى آل كارباخال وغيرهم من الفرسان.

(٣٦) كلمة "لنا" تعنى بوضوح أن المؤلف لا يتخذ موقف الحياد. (المراجع).

الفصل السادس عشر

كيفية تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء على مدينتى بسطة ووادى آش، وإنجازهما الكثير من الأمور فى عام ١٤٨٩ لميلاد المسيح.

فى أعقاب استسلام القرى والقلاع السابق ذكرها، وما كان من استطلاع أحوال المدن بالطرق التى أسلفناها، أدرك صاحبا الجلالة فى ربيع عام ١٤٨٩ مدى الأهمية المترتبة على مواصلة الحرب ضد المسلمين. فقصدا مدينة جيّان ، وأصدرا أوامرهما لجمع كل قواتهما المتمركزة فى مدينتى بياسة وأبدة، وذلك عند مقدمة كاثورلا لأنها نقطة العبور إلى تلك البقاع. عندما انتظمت الأمور على النحو الأكمل، شرع الملك الكاثوليكى فى مسيرته صوب بسطة، وفى أثناء الطريق خاض المعارك مع حصن كويار Cúllar وتغلب عليه، وسلمه المسلمون إياه بعد قتال مرير. بعدها فتح قلاع فرويلة Froila، وباثوس Bazos، وكانيس Canilles، وبن سلّيمة Benzulema؛ وذلك حتى لا يُخَلِّف وراءه أى عوائق أمام آل كارباخال - los Carvajales الذين تولوا مهمة تزويد القوات الملكية بالمؤونة- ثم حاصر مدينة بسطة. وكان داخلها سيدى يحيى Cidi Yahaya عمدة ألمريّة وابن عم الزغل، وهو صاحب قدر ومنزلة رفيعة، وقد ذاد عن مدينته بإصرار وبسالة مثاليين طوال ستة أشهر وعشرين يومًا. حصدت المعارك والاشتباكات أرواح الكثير من القتلى فى كلا الفريقين، وفى نهاية الأمر، فطن المحاصرون إلى مثابرة جيشنا وثباته فى موقعه، بل إن تعداده كان يزداد كل ساعة، وهو أيضا يُحْكِم عليهم الحصار بما احتاط به من تشييد البروج وحفر الخنادق، لكى يمنعهم من الخروج أو الدخول دون تعريض أنفسهم للخطر المحدق. كما أنهم ليس

لديهم من يمد إليهم يد العون، فالملك الزغل محاصر فى وادى آش ولا يقدر على مساعدتهم؛ لذا فقد طالبوا العمدة يحيى أن يسعى للاستفادة من الموقف. فأسلم المدينة وسائر البروج والقلاع المحيطة تحت شروط عادلة للغاية؛ واحتلها بنو جلدتنا من المسيحيين فى اليوم الرابع من شهر ديسمبر من ذلك العام.

فى أعقاب الفوز ببسطة خضعت سائر قرى وحصون وادى بورشينا ونهر المنصورة التى لم تكن قد أذعنت بعد، وأسلم أهلها القلاع إلى صاحبى الجلالة وقدموا أنفسهم كمدجنين ورعايا لجلالتهما. وقد حدث الأمر عينه مع قاطنى مدينة وضفاف نهر ألمرية ومنطقتى غادور وفيلابلس[٢٧] Filables الجبليتين، ولم يتبق بعد ذلك سوى مدينة وادى آش؛ وقد حاول القاضى يحيى، الذى سعى لأن تحذو كل المدن حذوه، الاتفاق مع الزغل لتسليمها. أما ذاك الأخير فأسقط فى يده، وعقد معاهدة سلام مع الملكين الكاثوليكيين منحهم بموجبها المدينة، وقرى زناتة التسع والبلدان الواقعة فى المنطقة الجبلية بين وادى آش وغرناطة. ثم عمل لاحقًا على استسلام بقاع السهلين los dos Ceheles، وأندرش Andarax، ودالّياس Dalīas، وبيرخا، وأوخيخار، وخوبيليس Juviles، وفيريّرة Ferreira، وبوكيّرة Poqueira – وتقع جميعًا فى البشرات وأورخيبا ووادى ليكرين – حيث قام بحث الأهالى على الاستسلام، لأنه كان يسعده أكثر رؤيتها تحت سيطرة المسيحيين من أن يبسط ابن أخيه سطوته عليها. هذا وقد أنعم عليه صاحبا الجلالة ببلدة أورخيبا ووادى ليكرين ونصف مملحات مالايا Malaba والعديد غيرها من المواريث لكى يعيش من ريعها؛ وقد ظل هو والقاضى يحيى قائمين على خدمة صاحبى الجلالة حتى وضعت الحرب أوزارها. ثم طلب الإذن بالانتقال إلى بلاد المغرب، قائلاً إنه لا يود العيش فى أرض كان ملكًا عليها، فهو لم يعد فى استطاعته العودة إلى الملك، ولم يمسِ طامحًا لنيل هذا المنصب. وقد أمر ملك فاس بأسره نظرًا لما تسبب فيه من شقاق فى مملكة المسلمين؛ وكان على قناعة تامة برأيه،

(٢٧) قد يكون تحريفًا لاسم مدينة فيلابريس Filabres، وليس هذا جديدًا على المؤلف. (المراجع)

وأفقده بصره بوضع قضيب من النحاس الأصفر المشتعل أمام عينيه. وقد عاد الزغل أدراجه فيما بعد إلى مدينة بلش غمارة، وعاش فيها أمداً طويلاً رجلاً بائساً ضريراً، وكان ملك بلش يُطْعِمه ويكسوه، وصار على الدوام يرتدى فوق ثيابه لافتة كُتِبَ عليها باللغة العربية: "هذا هو ملك الأندلسيين البائس."

عندما توجه الزغل بلاد المغرب، ترفق أصحاب الجلالة بالأميرين علىّ Alí ونصر Acre – أبناء الملك أبى الحسن وزوجته ثريا – اللذين تنصرا لاحقًا وسُميا بالسيدين خوان Juan وفيرناندو Hernando[38]، وأنعما عليهما بطاعتى أورخيبا وخوبيلين Ju-belein، وقد طفقا قائمين عليهما حتى انتزعهما من بين أيديهما صاحبا الجلالة أثناء ثورة البشرات فى عام ١٤٩٣، حيث عوضاهما ببعض الحقوق، وأربعمائة ألف عملة كمعاش دائم، بالإضافة إلى حيازة قلعة مونليون Monleón وحكم مملكة جليقية. وقد تحول إلى ديانتنا سيدى يحيى وأحد أبنائه فتسمى الوالد بالسيد بدرو Pedro والابن بالسيد ألونسو Alonso، وكانا فارسين مقدامين، لهما مآثر جليلة خلال فتح غرناطة، لذا فقد أنعم عليهما صاحبا الجلالة بالنصف الآخر من مملحة الملاّحة[39] Malaha. وقد عوضاهما عنها لاحقًا ببلدة مارشينا Marchena إلى جانب مواريث أخرى وفيرة. أما ذاك الأب فهو ولد ابن سليم بن إبراهيم أبو ذكريا Aben Celin Aben Abrahem Abuzacari، أمير ألمريّة وحفيد إبراهيم بن المول أبو ذكريا Brahem Aben Almao Abu-zacari، الذى لُقِّبَ بالنجار Nayar لتمييزه عن الملك الأيسر Izquierdo. وكان يحكم غرناطة إبان حكم الملك خوان الثانى Juan el Segundo وبإنعام منه. كما أنه ينتسب إلى سلالة الملك ابن هود سليل ملوك غرناطة الذين طردوا الموحدين من إسبانيا، كما أوردنا سلفًا فى المجلد الثانى من كتابنا إفريقيا.

---

(٣٨) أنجب الملك أبو الحسن من زوجته ثريا الأميرين نصر (الذى أصبح اسمه فيرناندو بعد تنصره) و سعيد (الذى أصبح اسمه خوان) (المراجع).

(٣٩) ذكرها المولف بالباء فيما سبق، ونظن أن الاسم هنا أصح. (المراجع).

أضحى دى غراناداً هو لقب ذرية كل من السيدين خوان وبدرو، وأمسى شعارهما رمانتين مرسومتين على خلفية زرقاء صمّاء، يتخللها لافتة كُتِبَ عليها : لا غالب إلا الله . أما ذرية السيدين بدرو وألونسو فقد تلقبت ب بينيغاس Venegas، وأيضًا دى غرانادا(*). وكان شعارهما خمس رمانات نُقشَت على خلفية زرقاء صمّاء – وكانت في البداية رمانة واحدة – ولكنهم غيروها إلى خمس رمانات وزينوها بنفس اللافتة. وحدث ذلك فى أعقاب تحدى عُقِدَ في غوطة غرناطة، انتصر فيه الأب وابنه، وأردوا خمسة من المسلمين قتلى. وقد أكرمهم صاحبا الجلالة وتفضلا عليهم بعظيم الشرف أن كانا عرابيهم. وقد زوجا السيد ألونسو من خوانا دى ميندوثا Juana de Mendoza وصيفة الملكة الكاثوليكية، وابنة السيد فرانثيسكو أورتادو دى ميندوثا Francisco Hurtado de Mendoza رئيس ديوان جلالتها. وقد أنجبا ابنيهما السيد بدرو دى غرانادا بينيغاس Pedro de Granada Venegas فارس رهبانية سانتياغو Santiago والحاجب الأكبر لغرناطة، وهو والد ألونسو دى غرانادا بينيغاس Alonso de Granada Venegas سيد كل من كامبوتيخار Campotéjar وخاينا Jayena، اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد.

إذا ما عدنا إلى روايتنا التاريخية مرة أخرى، سنجد أنه لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكيين فى تلك المملكة سوى فتح مدينة غرناطة، وبعض الأماكن التى أبرمت العهود على موالاة الملك الزُغيبي. وقد أرسل الملكان إلى أبى عبد الله ما يفيد أن عليه الوفاء بما تعهد به آنفًا، وتسليم تلك المدينة وسائر حصونها فى غضون ثلاثين يومًا، وسوف يهباه قدرًا محددًا من الأموال ، بالإضافة إلى طاعات البشرات، التى سينتقل إليها ويعيش فيها. وقد تعكر صفو هذا الأخير عند سماعه لهذه الرسالة، وأجابهما بأن

(*) كلمة غرانادة granada تعطى معنى رصاصة أو رمانة، وهى أيضًا المرادف الإسبانى لغرناطة. أما دى غرانادة فتعنى الغرناطى . (المترجمة).

مدينة غرناطة كبيرة ومكتظة بالسكان، حيث استوطنها - فضلاً عن سكانها الأصليين - أناس من مناطق شتى تتباين آراؤهم؛ وبمقتضى ذلك فإنه لا يتسنى أو يجوز له الالتزام بما يُطلَب منه، لا سيما خلال المدة القصيرة التى يتعين عليه خلالها توفيق مآرب ومشيئة هذا الكم المتنوع من الأفراد. عندما عرف صاحبا الجلالة بذاك الرد عرضا عليه أموالاً وبلداناً أكثر، وإن لم يمنحاه كل ما سأل، لكى يحمل الغرناطيين فيما بعد على التخلى عن أسلحتهم وإخلاء بعض منازل محددة فى مناطق منيعة ليقطنها المسيحيون. لكنه مع هذا لم يبد موافقته، بل أعلن عداوته لهما، ثم حرّض أهالى البشرات والجبال والوادى على القيام بالثورة. وقد خرج من غرناطة وحاصر حصن بادول Padul وفتحه، قبل أن يتمكن الملك فيرناندو من إنقاذه، حيث كان موجوداً إذ ذاك بالقرب من وادى آش. نظراً لأن الوقت كان قد تأخر للغاية، فقد أمر جلالته بتحصين حدود كل من حصن الهندين Alhendín، وكولوميرا، وموكلين، وإيّورة، ومونتيفريّو، وقلعة يحصب، ولوشة، والحامة، وجميعها تحيط بغوطة غرناطة. بعد ذلك اتجه لقضاء فصل الشتاء فى مدينة إشبيلية، حتى يصدر الأوامر حول ما يجب تجهيزه بحلول فصل الربيع.

الفصل السابع عشر

كيف عاود الملكان الكاثوليكيان مسيرة الفتوحات، وما أنجزاه في عام ١٤٩٠

رجع الملك في العام التالي – الموافق ١٤٩٠ في التقويم المسيحي – لاقتحام غوطة غرناطة، وبصحبته كل من الزغل وعمدة بسطة وآخرون غيرهما من كبار المسلمين الأجلاء. وأثناء انهماك المسيحيين في إعمال الخراب في الحقول وتقطيع الأشجار في الأراضي المزروعة، هب الغرناطيون في العديد من الأحايين للاشتباك معهم والدفاع عنها. في إحدى تلك المرات قتلوا السيد ألونسو باتشيكو Alonso Pacheco، وهو أخو ماركيز بيينا Villena الذي أصيب بطعنة رمح في أحد ذراعيه، وقتلوا عدداً كبيراً من الفرسان كانوا يرافقونه؛ بيد أن تلك الواقعة لم تسفر عن وقف تقطيع الأشجار. وقد حصن الملك الحدود جيداً قبل أن يرجع إلى قرطبة، إلا أن قوات الملك لم تكن قد نظمت انسحابها عندما خرج الزُغيبي من غرناطة لمحاصرة برج همدان على بعد فرسخين فقط من المدينة. على الرغم من مناعة الحصن واحتوائه على مقاتلين ورجال حرب مهرة، فإن الزغيبي قاتل باستخدام الحيلة واستعمل الآلات التي كانت تستخدم آنذاك في تصميم بالغ، حتى أن عمدة الحصن عندما رأى المسلمين قد حفروا عند الأساسات ودعموها بالحطب والأشجار ليشعلوا فيها النيران اضطر إلى الخضوع. وقد أمر المسلم بهدم الحصن وتسويته بالأرض، واقتاد من كان بداخله من المسيحيين أسرى إلى غرناطة.

حملت أصداء ذاك النصر مسلمي البشرات والجبال والوادي على الثورة ضد الحصون الموالية للملك. وقد قصد الزُغيبي نارشينا Narchena وبولودوي Bolodui –

اللتين تقعان بين وادى آش والمرية – على رأس جمع غفير، وعندما ألفاهما غير محتاطتين قاتلهما واستولى عليهما بقوة السلاح. وقد أفادنا شيخ مسلم طاعن فى السن يربو عمره على مائة عام وعشر، أنه كان موجوداً فى البيّازين بغرناطة وقت كتابتنا لمؤلفنا عن تاريخ إفريقيا، وأنه خلال تلك الواقعة تمردت كل نواحى البشرات والجبل ووادى ليكرين، وفقد المسيحيون الحصون التى كانوا قد استولوا عليها، ما عدا اثنين أو ثلاثة كان أحدهم مونتوخار. وقد ذادت عنه ببسالة امرأة نبيلة تدعى السيدة ماريا دى أكونيا María de Acuña وهى زوجة العمدة، لأن زوجها كان متغيباً. كذلك فقد حاول المسلمون الاستحواذ على قلعة شلوبانية التى باتت ضمن صفوف الملك، وذلك للنفع الذى كان سيجلبه هذا الميناء الذى تستطيع سفن المغرب اللجوء إليه. فاتفق مع المسلمين المعاهدين القاطنين داخل البلدة حتى يسمحوا له بالدخول فى إحدى الليالى، لكى يسهل عليه تسلق أسوار القلعة فى يسر، وكان هذا ما حدث. غير أن عمدتها دافع عنها باستبسال، رغم أنهم أخضعوه لكرب عظيم، كان سيؤدى إلى إذعانه، لو لم يهرع الملك فيرناندو لإغاثته. كما أن الزُغيبى استحث الموريسكيين(٤٠) المعاهدين المقيمين فى مدن بسطة، ووادى آش، والمريّة للقيام بانقلاب؛ وفى نهاية الأمر تمكن من إبرام اتفاق مشترك بينه وبين السواد الأعظم من المدجنين. هبَّ الملك للحاق بتلك المعركة، وكان دخوله وجيشه إلى غوطة غرناطة الداعى وراء تأمين الملك المسلم لتلك المدينة، وهكذا تضاربت خطط كل منهما. عاد الملك أدراجه إلى قرطبة فى أعقاب تقطيع وتدمير محصول الذرة الذى كان الغرناطيون قد زرعوه، وذلك مع حلول شهر سبتمبر، ولكنه لم يتوقف طويلاً فى تلك المدينة، فهو عندما فطن إلى الاتفاق الذى عقده أهالى بسطة ووادى آش والمريّة مع الزُغيبى، وكيف أنهم أرسلوا يطلبون معونته حتى يقوموا بالثورة، أراد وضع حد لذلك على وجه السرعة التى يستلزمها الموقف. فحث

---

(٤٠) مصطلح "موريسكى"، بالمعنى الذى يفهمه المتخصصون فى الدراسات الموريسكية، لا يصح إطلاقه على مسلمين قبل سقوط غرناطة، وبالتحديد قبل فبراير عام ١٥٠٢ عندما صدر مرسوم يحظر ممارسة الدين الإسلامى. (المراجع).

الخطى لمسافات طويلة حتى بلغ تلك الأنحاء، ثم دخل إلى مدينة وادى آش وأمَّن كل شيء بها تحت إشرافه، حيث أمر بإخراج كل المسلمين المقيمين داخل المدن والبلدان المحاصرة ليسكنوا فى القرى والأماكن المفتوحة، ومن يود منهم الانتقال إلى بلاد البربر فقد أذن لهم فى بيع ضياعهم والذهاب إلى هناك. هكذا استطاع ذلك الملك الكاثوليكى الفطن عن طريق تلك المساعى أن يضع حداً للثورة والحرب اللتين كانتا على وشك النشوب. ثم عاد أدراجه إلى إشبيلية لتنظيم الحصار الذى كان يفكر فى فرضه على مدينة غرناطة فى العام التالى.

الفصل الثامن عشر

مواصلة الملكين الكاثوليكيين مسيرة الفتوحات فى عام ١٤٩١، وحصارهما لمدينة غرناطة

مع قدوم ربيع عام ١٤٩١ لميلاد مخلصنا، بادر الملكان الكاثوليكيان - اللذان قضيا بداية العام فى إشبيلية - بالتحرك منها لمحاصرة غرناطة، وذلك بعد انقضاء عيد القيامة المجيد. فدلف الملك فيرناندو إلى غوطة غرناطة، وأمر ماركيز بيينا أن يتوجه إلى وادى ليكرين على رأس ثلاثمائة فارس وعشرة آلاف راجل لتدمير كل الأماكن التى قامت بالثورة. وتحسبًا لاحتمال مجابهة المسلمين إياه بقوة تفوق ما معه، وحتى لا تلحق بهم وعورة تلك الروابى الأذى، فقد خرج الملك فى أثرهم ويصحبته بقية الجيش. إنه رجلٌ لا يترك شيئًا للمصادفة[٤١] اقتحم ماركيز بيينا وادى ليكرين، وقضى على الأماكن المنخفضة التى لم تكن مهيأة جيدًا للمواجهة، وعاد أدراجه إلى بادول ومعه أعداد غفيرة من الأسرى والفىء. لكن الملك عندما لقيه هناك أمره بالعودة من حيث أتى، فتوغل أكثر إلى الأمام حتى دمر تلك الأراضى عن بكرة أبيها؛ وكان هذا ما ينبغى فعله قبل الشروع فى محاصرة غرناطة. رغمًا عن أن الزُغيبى، إزاء معرفته بالطريق الذى سيسلكه الملك فيرناندو، أرسل بعض عُمَدِه ومعهم أناس مترجلين لاحتلال تابلاتى Tablate ولانخارون - اللذين سيعبرهما المسيحيون لا محالة - لكنهم

---

(٤١) استعمال المؤلف للفعل المضارع غريب هنا. هل كان ينقل عن أحد مباشرة؟ (المراجع).

لم يكونوا أكفاء للذود عن المعبرين. فهاجم قواد الملك منخفض تابلاتي من ناحية الجسر، وأيضًا عن طريق معبر بالغ الصعوبة في الجزء العلوي يبعد عنه حوالي فرسخ، وقاموا بإلقاء المسلمين من أعلى قمم الروابي التي كانوا يحتلونها. ثم عبر الملك إلى لانخارون وظل بها في أثناء إفناء رجاله لكل بقاع الوادي و طاعات أورخيبا وغيرها من البلدان الكائنة بتلك الجبال.

بعد ذلك، وبعد أن قُطِّعَت أشجار سائر الأراضي المزروعة في المقاطعة، عاد الملك يصحبه جيشه بأكمله إلى بادول، ومنها توغل إلى غوطة غرناطة، ونصب معسكره الملكي إلى جوار عيون ماء يقال لها أوخوس دي أويركال Ojos de Huércal، تقع على مسافة فرسخين من تلك المدينة ذائعة الصيت، يملؤه الإصرار على خدمة الرب وعدم حل المعسكر حتى يفتحها. وقد دامت فترة الحصار طيلة ثمانية أشهر وعشرة أيام، دار خلالها قدر كبير من النزاع بين كلا الطرفين، وذلك منذ اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل وحتى الثاني من يناير لعام ١٤٩٢. في أثناء تلك المدة وقع العديد من المآثر الجليلة قام بها الفرسان والمشاة، سواء المسيحيين أو المسلمين، ممن كانوا يرغبون في الظهور في حضرة ملوكهم. كان بعضهم مدفوعًا بالشهرة، وغيرهم يهمه الحصول على الجوائز، وأكثرهم يحركه الوازع الديني. وقد وفدت إلى هذا الحصار الملكة الكاثوليكية إيسابيل، التي كانت دائمة الرغبة في الحضور في جميع المحافل الخطيرة والبالغة الأهمية، لتشحذ همم رعاياها بحضرتها الملكية، وقد اصطحبت معها ولديها: الأمير خوان والأميرة خوانا.

لما اشتعلت النيران في إحدى الليالي في خيمة الملكة بسبب شمعة كانت إحدى الفتيات القائمات بالخدمة قد أهملت إطفاءها، واحترقت خيام أخرى كانت بمحاذاتها، أمر الملكان أن يُنْشَأ في المعسكر الملكي منازل مسورة مكسوة بطبقة من القرميد يأوي إليها الناس. وقد أُسِسَت وفقًا لترتيب موضوع، مع وجود شوارع منظمة في المنتصف، بعدها أخذت كل من تلك المدن وكذلك رؤساء الرهبانيات الحربية على عاتقهم تنظيم مقارهم. فباتت هناك مدينة تحوطها الأسوار والبروج وحولها خندق عميق، بها

شارعان رئيسان فى النصف الأيمن على هيئة صليب، يؤديان إلى أربعة أبواب تقابل اتجاهات الريح الأربع، تتوسطها ساحة فسيحة ورحبة يمكن جمع أفراد الجيش بها. وقد ترك كل بنّاء حجراً يمثل شاهداً لقبره فى الجزء الذى تولى تشييده من الحائط، وقد وُضِعَت فى أبرز مكان يحويه المقر. هذا ويمكن لمحبى الاستطلاع والبحث مشاهدتها حتى الآن إذا ما تجولوا حول المدينة من الخارج. أطلق الملكان الكاثوليكيان على تلك المدينة سانتا فى(*) Santa Fe وهو لقب يليق بفتوحاتهم. أسهمت المدينة فى تأمين المعسكر الملكى من الحرائق، وتقويته ضد أى زحف من الأعداء الذين قنطوا وأسقط فى أيديهم عندما رأوها وقد شُيدت، حيث أدركوا أن هذا الحصار أمر جدّى، وأن الباعث وراءه هو عدم حل المعسكر الملكى من هناك إلا بعد سلب غرناطة من أيديهم.

(*) "سانتا فى" تعنى باللغة العربية العقيدة المقدسة. (المترجمة).

الفصل التاسع عشر

كيف اتفق المسلمون على تسليم غرناطة، وما استلزمه ذلك الأمر من معاهدات.

حينما أدرك الزُغيبى إن مدينة غرناطة تفتقر إلى الدفاعات، وأنه ما من أمل فى إغاثتها، نزل على رغبة الغالبية العظمى من الشعب، الذى لم يعد يطيق تكبد هذا الهم الثقيل. فأرسل إلى الملكين الكاثوليكيين يطلب هدنة، يتسنى له خلالها التوصل إلى شروط وبنود معاهدة السلام التى سيسلم المدينة على أثرها. وكان - قبل أى شىء - قد سلّم ابنًا له وأبناء آخرين لقادة وأناس بارزة فى المدينة والبيّازين كرهائن حُمِلَت إلى حصن موكلين. فلمّا مُنِحَ مهلة مدتها ستين يومًا اجتمع الفرسان والمواطنون المسلمون عدة مرات لمحاولة التفاوض عليها، وغدا وراح الكثيرون منهم لإبلاغ ما تم الاتفاق على المطالبة به إلى أعضاء المجلس الملكى المفوضين بالاضطلاع بذاك الشأن. رغم أنهم تباحثوا ما توصلوا إليه بإلحاف مبالغ فيه، فإن المنتصرين - اللذين لم يرغبا سوى فى إكمال انتصارهما - قد لبيا كل ما طُلِبَ.

فى أعقاب عقد المعاهدات وإرساء الشروط، أوفد الغرناطيون - بإجماع آرائهم - مواطنًا نبيلاً يدعى أبو قاسم المالح Abi Cacem el Maleh يملك من الصلاحيات الكثيرة أن يخول أصحاب الجلالة ما يشاءان. رغبةً فى إرضاء فضول القارئ، فإننا نكتب هنا نص تلك المعاهدات التى عقدت حرفيًا الامتيازات التى منحت لكل من الملك والملكات المسلمات[٤٢]، أو المدينة وباقى أرجاء المملكة:

(٤٢) يقصد الملكة عائشة أو فاطمة والدة أبى عبد الله الصغير، بالإضافة إلى زوجته. (المراجع).

"أن ينعم أصحاب الجلالة الملكية المستمرة، إلى أبد الآبدين، لقرى ونواحي بيرخا وداليّاس ومارشينا وبولودوي وخوشار Juchar وأندرش وخوبيليس وأوخيخار وخوبيلين وفيريّرا وبوكيّرا وأورخيبا – وكلها في البشرات – على الملك أبي عبد الله؛ بكل المواريث والمكاسب والحقوق وغيرها من الإيجارات التي تخص صاحبي الجلالة بأي حال من الأحوال في المناطق المذكورة، لتكون ملكية خالصة له، يمكنه بيعها أو رهنها أو فعل ما يتراءى له بها؛ على أنه إذا ما رغب في بيعها أو رهنها، فعليه إعلام صاحبي الجلالة لمعرفة إذا ما كان لهما رغبة بها. وإذا أخذاها فسوف يدفعان له مقابل ذلك ما يتم تحديده.

يمكن لصاحبي الجلالة بناء الحصون في أدرا Adra أو غيرها أينما يشاءون في البشرات، وزراعتها، وكذا تملُّك بروج على ساحل البحر. إذا ما أنشيء حصن جديد إلى جوار البحر في أدرا، فإن الحصن القديم يؤول إلى الملك عبد الله المذكور، وذلك بعد إصلاح وتحصين حصن صاحبي الجلالة. ولن يُدْفَع مقابل لقيام الحراس بإصلاح الحصون والبروج المنصوص عليها، ولابد أن يحصلوا على الأرض دون دفع أية إيجارات.

بعد تسليم الحمراء والحصون الأخرى، سوف يرسل صاحبا الجلالة للملك ثلاثين ألف عملة قشتالية ذهبية، وهو ما يساوي أربعة عشر مليون(٤٣) وخمسمائة وخمسين ريال مرابطي عداً ونقداً.

أن ينعم عليه صاحبا الجلالة بكل المواريث، ومعصرات الزيت والأراضي والحقول، التي كانت ملكه وفي حوزته في عهد والده الملك أبي الحسن، ولا تزال حاليًا ملكه وفي حوزته سواءً على حدود مدينة غرناطة أو في البشرات.

---

(٤٣) جاء في شرح معاني اللفظ بالإسبانية أنه يساوي مليونًا، وإن كانت آنذاك تنطق "ألف ألف". (المراجع).

أن يتفضل الملك على والدته الملكة عائشة[٤٤]، وعلى أخواته وزوجه وامرأة مولاى أبى نصر Muley Abi Nacer بسائر البساتين والأراضى والحقول والطواحين والقرى وغيرها من المواريث التى يمتلكنها فى مدينة غرناطة المذكورة وفى البشرات. على أن تكون جميعها معفاة وخالصة من أية مصاريف أو حقوق، كما كانت حتى الآن. كما يمنحان الملك عبد الله والملكات والأمراء سالفى الذكر، وكذا الحاج رُمَيمى Haxi Romaimi كل ما يحوزونه من إرث فى موتريل بنفس الإعفاءات.

أى قرية أو بقعة من البشرات ترضخ وتستسلم إلى صاحبى الجلالة قبل تسليم الحمراء، وبعد توقيع هذا الاتفاق، يجب ردها وإعادتها إلى الملك عبد الله، وعليه حسن معاملتها.

ألا يطالب صاحبا الجلالة الملك عبد الله المذكور، أو أيا من خدمه، على الإطلاق بإرجاع ما أخذوه فيما سبق من المسيحيين أو من المسلمين، سواء من المنقولات أو الأصول الثابتة. وإذا ما أمر صاحبا الجلالة برد أى من تلك الأشياء أو المواريث التى تم الاستيلاء عليها، بمقتضى عهد أو اتفاق مع شخص ما، فعليهما سداد المقابل والمطالبة بألا يضحى لأى مسلم أو مسيحى سلطان عليه - سواء قل أو كثر - ومن يخالف ذلك يجب الأمر بمعاقبته فى هذا الخصوص، و لا يمكن معاقبة الملك المسلم بموجب أى قانون خاص بالمسيحيين أو بالمسلمين.

متى أراد الملك عبد الله، أو أمه، وإخوته، وزوجته، وامرأة أبى نصر المذكور، وعُمَدِه، وخدمه، وأهل بيته، وكل من يعمل فى خدمته الانتقال إلى بلاد المغرب، يأمر لهم صاحبا الجلالة باستئجار سفينتين من جنوة ليعبروا فيهما إلى هناك؛ هذا إذا توفر

(٤٤) لا ندرى بالضبط هل كان اسمها عائشة أم فاطمة، فهناك وثائق خاصة بالأحباس يرد فيها اسم فاطمة. (المراجع).

ذلك في الوقت الذي يشاءون فيه الذهاب هناك. وإذا لم يتوفرا آنذاك فعليهم الانتظار حتى يمسى ذلك متاحًا، دون أن يدفعوا أى إيجار أو مصروفات. كما يتسنى لهم اصطحاب رجالهم وثيابهم وبضائعهم وذهبهم وحليهم وحيواناتهم وأسلحتهم - على ألا تحوى طلقات بارود؛ لأنها تنتمى إلى أصحاب الجلالة - ولا يتم مطالبتهم بأى نوع من الحقوق أو الإيجار مقابل الشحن والتفريغ أو أى شىء آخر. ويُسْمَح لهم بحملهم آمنين ومكرمين ومحميين إلى أى ميناء يريدون أن ترسو سفينتهم عليه فى المشرق أو المغرب، من الإسكندرية أو مدينتى تونس أو وهران أو مملكة فاس.

إذا لم يتسن لهم قبل الصعود إلى السفينة بيع أملاكهم ذات الريع الكائنة فى مملكة غرناطة التى ذكرناها، فيمكنهم تفويض نوابهم لتحصيلها أو حملها أو إرسالها إليهم حيثما يوجدون، دون أن توضع أمامهم أى عراقيل.

إذا أراد الملك عبد الله المذكور إرسال نفر من عمده أو خدمه ببعض البضائع إلى بلاد المغرب فله أن يقوم بذلك فى حرية تامة، من غير أن يُطلب منه أثناء الذهاب أو الإقامة أو العودة أى شىء على سبيل الاستحقاقات.

يمكنه إرسال ست دواب إلى أى من أرجاء ممالك أصحاب الجلالة، بغرض المؤونة والزاد، وذلك فى وضوح وصراحة دون تكليفه إزاء ذلك أية استحقاقات فى أى مكان.

أنه مع خروجه من غرناطة بمقدوره أن يذهب ليعيش حيث يشاء فى الأماكن التى وهبت له، وأن يغادر المدينة بصحبة القادة والعلماء والفرسان، ومن يرغب فى مرافقته أو يود هو اصطحابه من العامة على أن يحملوا جيادهم ودوابهم ونساءهم وبنيهم وصبيانهم وفتيانهم - صغارًا وكبارًا - وأسلحتهم فى أيديهم أو كما يريدون حملها، وألا تُؤخَذ منهم باستثناء أعيرة البارود. كما لا يُوضَع لهم الآن أو فى أى وقت آخر على الإطلاق أى علامات لتمييز شخصهم أو أى شىء آخر بأية وسيلة، لا هم ولا

ذريتهم، وأن يتمتعوا بكل بنود المعاهدات التى أُبْرِمت أو سوف يتم إبرامها مع أبناء مدينة غرناطة تلك(٤٥).

أن يبعث صاحبا الجلالة إلى كل من الملك عبد الله وأمه وزوجه وأخواته وامرأة أبى نصر فى اليوم الذى يسلمون فيه حصن الحمراء وبقية الحصون، خطابات الامتيازات الثابتة والموثقة بكل المذكور أعلاه، مسجلة ومختومة بختم الرصاص المُعَلّق بخيوط حريرية، ومجازة من قبل الأمير خوان وكاردينال إسبانيا ورؤساء الرهبانيات الحربية ورؤساء الأساقفة والأساقفة، وغيرهم من رؤساء الأديرة والعظماء والدوقات والماركيزات والكونتيسات ورؤساء المحاكم وكبار كتبة العدل فى هذه الممالك."

أُعِدَّت هذه الاتفاقية ووقِعَت فى المعسكر الملكى فى مدينة سانتا فى، فى الخامس والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٤٩١، وبعدها بثلاثة أيام اختتمت بنود الاتفاق الذى أنعم به أصحاب الجلالة على مدينة غرناطة بوجه عام وبقاع تلك المملكة التى تعلن استسلامها، وهذا هو فحواها:

"أولاً، يُسَلِّم الملك أبو عبد الله والعمد والفقهاء والقضاة والمفتون والوزراء والحكماء والقادة وخيار الناس وكل عوام مدينة غرناطة وضواحيها والبيازين، إلى صاحبى الجلالة الجلالة أو مبعوثهما، فى حب وسلام وعن طيب خاطر فى القول والعمل حصنى الحمراء والحصن Alhizan بكل بروجهما وأبوابهما، وسائر الحصون الأخرى والبروج والأبواب الموجودة بمدينة غرناطة والبيازين والضواحى المشرفة على الحقول، وذلك خلال الأربعين يومًا الأولى، لكى يفرضا سيادتهما عليها باسمهما، ويعمرها رجالهما وفقًا لمشيئتهما. على أن يُؤمَر رجال الشرطة بعدم السماح للمسيحيين بتسلق الجدار القائم بين القصبة والبيازين - بحيث يمكن من أعلاه كشف بيوت المسلمين. وإذا صعد امرؤ وجب عقابه بحزم فيما بعد.

(٤٥) لاحظ أن هذا البند بالتحديد قد انتهكته السلطات المسيحية فيما بعد، إذ صدرت قرارات تلزم الموريسكيين بوضع علامات مميزة. (المراجع).

بعد انقضاء مهلة الأربعين يومًا يسلم كل المسلمين إلى أصحاب الجلالة تلقائيًا وطواعيةً، ما يتعين على الرعايا الأوفياء الصالحين تسليمه إلى ملوكهم وأسيادهم الطبيعيين. ولتأمين عملية الاستسلام يُسَلِم الوزير يوسف بن كماشة ، ومعه خمسمائة رجل من أبناء وأخوة الأشخاص البارزين بالمدينة والبيازين والضواحي أنفسهم كرهائن قبيل تسليم الحصن بيوم. ويبيتوا فى قبضة صاحبى الجلالة لمدة عشرة أيام، يتم خلالها تسليم الحصون وتأمينها وتزويدها بالأشخاص والزاد، وفى أثناء تلك الفترة يُزَوَدون بكل ما يلزمهم لعيشتهم، ويُطْلَق سراحهم عقب الانتهاء من تسلم الحصون.

فى أعقاب تسليم الحصون، يستقبل صاحبا الجلالة وولدهم الأمير خوان – بالأصالة عن أنفسهم ونيابةً عن خلفائهم – الملك أبا عبد الله وكذلك العمد والقضاة والفقهاء والمفتون والحكماء والوزراء والقادة والخدم وكل العوام – كبارًا وصغارًا ورجالاً ونساءً – من أهالى غرناطة والبيّازين والضواحى والحصون والقرى وسائر أرجاء أراضيها وأراضى البشرات، وغيرها من البقاع التى تدخل فى إطار هذا الاتفاق وهذه المعاهدة بأى شكل، كأفراد من رعاياهما وفى زمرة الخاضعين لكلمتهما وحمايتهما وتحت كنفهما. وسوف يتركاهم فى منازلهم وضياعهم وإرثهم حينئذ وفى كل وقت وإلى أبد الآبدين، ولن يسمحا بتعرضهم لأى أذى أو ضرر إلا بأمر من العدالة ولوجود سبب ما، ولن يبخساهم أملاكهم أو ضياعهم أو جزء منها. ولهم مقابل ذلك الامتثال والطاعة والاحترام من قبل رعاياهما، شأنهم شأن من يحيا تحت حكمهما وسيادتهما.

أنه فى اليوم الذى يبعث فيه صاحبا الجلالة من يتولى استلام قصر الحمراء، تُصْدَر الأوامر إلى رجالهم بالدخول عبر باب لاتشا(٤٦) أو باب النجد

(٤٦) نص المعاهدة الذى أورده محمد عبد الله عنان يتحدث عن دخول المسيحيين من باب العشار. (المراجع) .

أو الحقول الواقعة خارج نطاق المدينة، حتى لا يتسبب دخولهم إلى المدينة فى أى شغب أو استهجان(٤٧).

فى اليوم الذى يسلم فيه الملك عبد الله الحصون والبروج، سيأمر صاحبا الجلالة بتسليمه ابنه مع سائر الرهائن، وكذا نساءه وخدمه، إلا من اعتنق منهم المسيحية.

يترك صاحبا الجلالة وخلفاؤهما الملك أبا عبد الله، وعمده، وقضاته، ومفتيه، ووزراءه، وقادته، وخيرة رجاله، وسائر العامة - صغارًا وكبارًا - ليعيشوا دائمًا وأبدًا فى ظل شريعتهم؛ ولا يوافقون على سلب مساجدهم أو مآذنهم، ولا تمس أوقافهم ولا ريعها، ولا يُخَلُّون بأعرافهم وتقاليدهم القائمة(٤٨).

أن يحتكم المسلمون فى قضاياهم إلى الشريعة التى اعتادوا الرجوع إليها، وفقًا لآراء قضاتهم ورجال عدلهم.

ألا يُسلَبوا أو يُوَافق على حرمانهم الآن أو فى أى وقت على الإطلاق الأسلحة والخيول، ما عدا طلقات البارود الصغيرة والكبيرة، التى عليهم تسليمها على وجه السرعة إلى من يخوله صاحبا الجلالة.

من حق كل المسلمين - صغارًا أو كبارًا أو رجالاً أو نساءً - من أهالى غرناطة وأراضيها والبشرات وكل البقاع، ممن يودون الذهاب للعيش فى بلاد المغرب أو أى مكان يتراءى لهم ، بيع ضياعهم ومنقولاتهم وأصولهم الجامدة بالطريقة التى تتراءى لهم، لمن يريدون وكيفما يشاءون. ولا يقوم صاحبا الجلالة وخلفاؤهما، أو يسمحان أبدًا بسلبهم ما شروه؛ وإذا رغب صاحبا الجلالة فى شرائه فبإمكانهما الحصول عليه

(٤٧) الكلمة تقبل المعنيين، وعلى هذا يكون دخول المسيحيين من الباب المذكور تجنبًا لمقاومة بعض الرافضين للاتفاقية، أو حرصًا على شعور المسلمين. (المراجع).

(٤٨) كان هذا من أهم البنود التى انتهكتها السلطات المسيحية حين أجبرت المسلمين على الدخول فى المسيحية قسرًا. (المراجع).

بالثمن الذى يساوى قيمته. وإذا لم يكونا موجودين بالمدينة فيمكن للأشخاص الذين يخولانهم الاضطلاع بذلك.

من يرغب من المسلمين فى الذهاب إلى بلاد المغرب أو غيرها من الأماكن، يؤمن له أصحاب الجلالة معبراً آمنًا وحراً، هم وعائلاتهم ومنقولاتهم وبضائعهم وحليهم وذهبهم وفضتهم وسائر أنواع الأسلحة، باستثناء الآلات وطلقات البارود. ومن يشاء منهم العبور لاحقًا فسيوفرون لهم عشر سفن كبيرة لتؤمن احتياجاتهم فى الموانئ التى يطلبوها بها، وذلك لمدة ستين يومًا. وينقلوهم فى أمان، ودون مقابل إلى موانئ بلاد المغرب التى اعتادت بواخر التجار المسيحيين ارتيادها. إلى جانب ذلك فإن كل من يريد الرحيل فى غضون ثلاث سنوات فبوسعه فعل ذلك، وسيأمر أصحاب الجلالة بتزويدهم بالسفن حيث يشاءون ليعبروا فيها آمنين، على أن يخطروهما برغبتهم قبلها بخمسين يوماً، ولن يدفع المسلمون إيجار السفينة أو أى مقابل.

فى أعقاب انتهاء السنوات الثلاث، كل مرة يودون فيها العبور إلى بلاد المغرب فبمقدورهم فعل ذلك، وسيمنحون الإذن مقابل تسديد دوقية واحدة للفرد إلى صاحبى الجلالة، وأيضًا إيجار المراكب التى سيعبرون فيها.

فى حال عدم استطاعة المسلمين الراغبين فى الرحيل إلى بلاد المغرب بيع أملاكهم ذات الأصول الثابتة الموجودة فى مدينة غرناطة والبيازين والضواحى، وكذلك فى البشرات وفى أماكن أخرى، فلهم أن يدعوها فى رعاية طرف ثالث مفوض لتحصيل ريعها؛ وبإمكانهم أن يرسلوا كل ما يُحَصِّلونه إلى ملاكه حيثما يكونون فى بلاد المغرب دون التعرض لأى موانع.

ألا يأمر صاحبا الجلالة، أو ابنهما الأمير خوان، أومن يخلفهم فيما بعد على الإطلاق أن يحمل رعاياهم المسلمون على ثيابهم علامات مميزة، كما هو الحال مع اليهود.

ألا يدفع الملك أبو عبد الله أو بقية مسلمى مدينة غرناطة والبيازين والضواحى الضرائب المستحقة على المنازل والممتلكات خلال أول ثلاثة أعوام تالية. ولن يسددوا سوى العشر فى شهر أغسطس وفى الخريف، وعشر الأغنام التى كانت فى حوزتهم وقت احتساب العشر. ومن الملائم التعريف بأن احتساب العشر يتم خلال شهرى إبريل ومايو، كما جرت عادة الدفع عند المسيحيين.

إبان تسليم المدينة والمواقع، يُجْبَر المسلمون على تسليم كل الأسرى المسيحيين -ذكوراً وإناثاً - إلى صاحبى الجلالة لإطلاق سراحهم، دون أن يطالبوا أو يحصلوا على أى مقابل. ولو كان أحد المسلمين قد باع واحداً منهم فى بلاد المغرب، وطُلِبَ منه بدعوى حيازته إياه، حينئذ عليه الحلف - وفقًا لشريعته - وإحضار شهود حول كيفية بيعه قبل عقد هذه المعاهدة، ولن يُطْلَب منه تسليمه ثانيةً أو يضحى ملزمًا بتسليمه.

يأمر صاحبا الجلالة بعدم مطالبة أى من الملك أبى عبد الله، أو العمد، أو القضاة، أو المفتين، أو الوزراء، أو الوصفاء بتقديم دواب الحمل أو الخدم للقيام بأى عمل فى أى وقت على الإطلاق، إلا بمشيئتهم؛ وعلى صاحبى الجلالة دفع أجورهم اليومية العادلة.

ألا يوافق صاحبا الجلالة على دخول المسيحيين إلى مساجد المسلمين التى يقيمون بها صلاتهم دون تصريح من الفقهاء، ومن يدخل دون إذن يجب معاقبته على تلك الفعلة.

ألا يسمح صاحبا الجلالة بأن تكون لليهود سلطة على المسلمين، وألا يقوم اليهود بتحصيل أى ضرائب مستحقة.

أن يحسن صاحبا الجلالة ووزراؤهم معاملة الملك أبى عبد الله، وعمده، وقضاته، ومفتيه ووزرائه، وحكمائه، وقادته، وسائر عوام مدينة غرناطة والبيازين والضواحى، وكذلك البشرات وغيرها من الأماكن. وأن يظهروا لهم الاحترام ، ويصغون إلى

حديثهم، ويحافظون على تقاليدهم وشعائرهم، ويسمحون لكل العمد والفقهاء تحصيل إيجاراتهم، والتمتع بحرياتهم وامتيازاتهم كما جرت العادة. ومن الإنصاف الإبقاء عليها كما هي.

يأمر صاحبا الجلالة بعدم طرد ضيوف المسلمين، أو سلب ثيابهم أو طيورهم أو حيواناتهم أو أي صنف من صنوف زادهم رغمًا عنهم.

أن تُنْظَر الدعاوى القائمة بين المسلمين وفقًا لديانتهم وشرعهم، الذي يقولون بأخذه من السنة، وعلى يد القضاة ورجال العدالة كما جرت العادة. وإن كانت الدعوى بين مسلم ومسيحي، فيتولى الحكم فيها قاض مسيحي وقاض مسلم، لكي لا يتخذ ذلك أي من الجانبين كذريعة للاعتراض على الحكم.

ألا يضايق أي قاض أي مسلم، أو يحكم عليه بجرم اقترفه غيره؛ فلا يسجن الأب عوضًا عن ابنه، أو الابن عن أبيه، أو الأخ عن أخيه، أو أحد الوالدين عن الآخر، بل من يرتكب ذنبًا يلقى جزاءه.

يصدر صاحبا الجلالة عفوًا عامًا عن كل المسلمين الموجودين في سجن حامد أبي عليّ Hamed Abí Alí - أحد أفراد رعيتهما، كما يعفون عن سائر مناطق كابتيل Cabtil، فلا يؤذون ولا يضارون بسبب من قتلوا من المسيحيين، أو على خلفية عصيانهم لصاحبي الجلالة. ولن يطالبوا بأي شيء مما نهبوه أو سرقوه.

إذا استطاع المسلمون الأسرى لدى المسيحيين الهرب في وقت ما إلى مدينة غرناطة أو أي من الأماكن المذكورة في هذه المعاهدة يضحون أحرارًا. ولا يمكن للاّكهم المطالبة بهم، ولا للقضاة إرسالهم إليهم، إلا إذا كانوا من جزر الكناريا أو من زنوج خيلوفي Gelofe أو أهل الجزر.

ألا يدفع المسلمون للملوك الكاثوليك سوى الضريبة التي اعتادوا إعطاءها للملوك المسلمين.

يُمْنَح كل مسلمى غرناطة وأراضيها، الموجودين فى بلاد المغرب، مهلة خلال السنوات الثلاثة القادمة للمجيء والدخول فى هذا العقد، والتمتع به إن شاءوا. وإذا كانوا قد نقلوا نفرًا من المسيحيين الأسرى إلى شمال إفريقيا، وقاموا ببيعهم فلم يبيتوا فى حيازتهم، فلن يتم إجبارهم على جلبهم أو ردّ أى من الثمن الذى تقاضوه نظير بيعهم.

إذا رغب الملك أو أى مسلم فى العودة إلى إسبانيا، عقب ذهابهم إلى شمال إفريقيا ، حيث لم تعجبه البلاد أو أسلوب التعامل فى تلك الأرجاء، يأذن له صاحبا الجلالة فى ذلك، وله التمتع بتلك الاتفاقيات كأى شخص آخر، وذلك فى غضون مدة قدرها ثلاثة أعوام.

إذا شاء المسلمون الخاضعون لهذه الاتفاقيات والمعاهدات، الذهاب ببضائعهم للتجارة وعقد الصفقات فى شمال إفريقيا ، يسمح لهم فى ذلك فى حرية مطلقة. وينطبق الأمر عينه على سائر أرجاء قشتالة وأندلوثيا، دون دفع رسوم عبور الأبواب أو غيرها من الاستحقاقات التى درج المسيحيون على سدادها.

لن يُسْمَح لأى فرد الإساءة بالفعل أو القول إلى المسيحيين أو المسيحيات، الذين اعتنقوا الإسلام قبل إبرام هذه المعاهدات؛ وإذا كان لأحد المسلمين امرأة مرتدة عن دينها، فلن يتم مضايقتها حتى تعتنق المسيحية رغمًا عنها، بل يتم استجوابها فى حضور مسيحيين ومسلمين، وتُنَفَذ مشيئتها. ويُطَبّق نفس الإجراء مع الصبيان والفتيات من أم مسيحية وأب مسلم(٤٩).

(٤٩) النص هنا يحتمل أن يكون للسلطات إجراء مراجعة لكل حالات التحول من المسيحية إلى الإسلام، وإن كان ذلك يتم بحضور فقهاء مسلمين، وهو بند لا يذكر عادةً عند الحديث عن اتفاقية تسليم غرناطة. (المراجع).

لا يُجْبَر أى مسلم أو مسلمة على الدخول فى المسيحية غصباً. إذا أرادت أى فتاة أو امرأة متزوجة أو أرملة التنصر لأسباب عاطفية، فلن يُقْبَل منها ذلك حتى يتم استجوابها. وإن كانت قد سلبت شيئًا من ثياب أو حلى من منزل والديها أو أى موضع آخر، ستُرَد إلى مالكها، وتتولى العدالة معاقبة المذنبين.

ألا يطالب صاحبا الجلالة أو خلفاؤهما على الإطلاق الملك أبا عبد الله، أو أهالى غرناطة وأراضيها، أو باقى من يخضع لبنود هذه المعاهدة، رد خيول، أو متاع، أو مواش، أو ذهب، أو فضة، أو حلى، أو أى شىء آخر ظفروا به بأية وسيلة، أثناء نشوب الحرب وقيام الثورة(٥٠). وكذا الحال مع المسيحيين والمسلمين سواء مدجنين أو غير مدجنين. وإذا تعرف بعضهم على بعض الأشياء التى سُلِبَت منه، لا يسعه المطالبة بردها، بل ويُعَاقب إذا أقدم على ذلك.

إذا كان أحد المسلمين قد جرح أو قتل مسيحيًا أو مسيحيةً، كانوا أسرى لديه، فلن يتم مطالبته بهم، أو محاسبته على الإطلاق.

لن يدفع المسلمون، فى أعقاب انتهاء سنوات الإعفاء الثلاث، فيما يختص بإيجارات الضياع والأراضى الأميرية، أكثر من القيمة المستحقة بالضبط، والمقدرة وفقًا لثمن الأرض وجودتها.

ينبغى أن يكون القضاة، والعمد، والحكام المعينون من قبل صاحبى الجلالة فى غرناطة وأراضيها أشخاصًا فضلاء، يكرمون المسلمين ويعاملونهم بود، ويحفظون لهم تطبيق هذه المعاهدات. وإذا أتى أحدهم بفعل شائن، يأمر صاحبا الجلالة بنقله ومعاقبته.

---

(٥٠) يقصد حرب غرناطة الأخيرة قبيل تسليم المدينة. من وجهة نظر السلطات المسيحية كانت تلك المواجهات عبارة عن تمرد على اتفاقية أبرمت مع أبى عبد الله الصغير. (المراجع)

لا يطالب صاحبا الجلالة وخلفاؤهما، أو يرفعون دعاوى على الملك أبى عبد الله، أو أى من الأشخاص الذين قبلوا هذه المعاهدة، نظير أى فعل اقترفوه، تحت أى ظرف من الظروف، وذلك حتى تاريخ تسليم المدينة والحصون.

لن يتولى أى وزير، أو وصيف، أو خادم للملك الزغل أى منصب، أو زعامة على مسلمى غرناطة أبدًا.

تفضلاً على الملك أبى عبد الله، وأهالى وقاطنى غرناطة والبيّازين والضواحى، يؤمر بإطلاق سراح كل المسلمين الأسرى - رجالاً ونساءً - فى حوزة المسيحيين دون سداد أى مقابل؛ فيفك أسر من فى أندلوثيا فى غضون خمسة أشهر، ومن فى قشتالة خلال ثمانية أشهر. كما يأمر صاحبا الجلالة، بعد مرور يومين على تحرير الأسرى المسيحيين الموجودين بغرناطة، بتسليم مائتى مسلم ومسلمة. علاوةً على ذلك يتم الإفراج عن ابن الحضرمى الموجود لدى غونثالو إيرنانديث دى كوردوبا، وكذلك عثمان Hozmin - وهو بحوزة كونت تينديّا - وأيضًا رضوان Reduan - وهو فى قبضة كونت قبرة - وكذا كل من ابن محيى الدين Aben Mueden، وابن الفقيه حديمى Hademi؛ وكلها شخصيات بارزة من أهل غرناطة. هذا إلى جانب الوصفاء الخمسة الذين أُسِروا خلال حملة إبراهيم بن سراج Brahem Abencerrax، إذا عُرِفَ مكان وجودهم.

يعطى ويسلم كل مسلمى البشرات الداخلين فى خدمة صاحبى الجلالة سائر الأسرى المسيحيين الموجودين فى حوزتهم فى غضون خمسة عشر يومًا، دون أن يُمْنَحوا أى مقابل. وإذا كان أحدهم قد أُعْطِى إلى مسلم آخر دفع ثمنه بنظام المقايضة، يأمر صاحبا الجلالة القضاة أن يطالبوا برده لاحقًا.

يأمر صاحبا الجلالة بالحفاظ على عادات المسلمين فى المواريث، ويتولى قضاتهم الفصل فى الشئون المتعلقة بها.

كل مسلم، بخلاف من يشملهم هذا العقد، يود الانضمام إلى خدمة صاحبى الجلالة خلال ثلاثين يومًا، بمقدوره فعل ذلك والتمتع به، وبكل ما ينطوى عليه ذلك الفعل، باستثناء الإعفاءات الممنوحة لمدة ثلاث سنوات.

كل الأحباس والإيجارات الخاصة بالمساجد، والصدقات، والأمور الأخرى التى جرت العادة على تخصيصها للمدارس وحلقات العلم والكتاتيب المعدة لتعليم الأطفال، تبقى مسئوليتها على عاتق الفقهاء، الذين يضطلعون بتقسيمها وتوزيعها كما يتراءى لهم. ولا يتدخل صاحبا الجلالة أو وزراؤهما فى هذا الشأن أو أحد جوانبه، ولا يأمرون بأخذها أو إيداعها فى أى وقت أبدًا.

يأمر صاحبا الجلالة بإعطاء الأمان لكل سفن بلاد المغرب الموجودة بموانئ مملكة غرناطة، لتسير بحرية، على ألا تحمل على متنها أسرى مسيحيين. وألا يوافقا فى أثناء فترة بقائهما فى الموانئ على تعرضها للإهانة أو الاستيلاء على شىء من أملاكها. أما إذا حُمِلَ على ظهرها أو نُقِلَ فيها بعض الأسرى المسيحيين فلن ينفعها هذا العهد؛ لذا يجب تفتيشها قبيل إقلاعها.

لا يُجْبَر المسلمون أو يُرْغَموا على تأدية أى خدمة عسكرية رغمًا عنهم، ولو رغب صاحبا الجلالة فى الاستفادة من خدمات بعض الفرسان، واستدعياهم إلى أى من بقاع أندلوثيا، فينبغى دفع رواتبهم منذ يوم خروجهم وحتى تاريخ عودتهم إلى ديارهم.

يأمر صاحبا الجلالة بالإبقاء على قوانين توزيع مياه العيون والسواقى التى تصل إلى غرناطة، ولا يوافقون على تغييرها، أو الاستيلاء على شىء أو جزء منها. ومن يحدث تغييرًا فيها أو يلقى قاذورات بداخلها يُعَاقَب على ذلك.

إذا ترك أسير مسلم مسلمًا آخر رهينة نظير الإفراج عنه، وهرب الأسير إلى مدينة غرناطة أو أى من أراضيها، يصبح الاثنان من الأحرار. ولا يُجْبَر هذا أو ذاك على سداد الرهن، ولا يُرْغِمهم القائمون على تنفيذ العدالة على فعل ذلك.

يصدر الأمر بقضاء الديون القائمة بين المسلمين، والمثبتة فى صكوك ومكاتبات نقداً. ولا يترتب على نقل الملكية والسيادة إلا أن يدفع كل فرد ما عليه.

يتم الفصل بين أماكن الذبح الخاصة بالمسيحيين وتلك الخاصة بالمسلمين، ولا تُخْلَط مؤونة هذه بمؤونة تلك، ولو قام شخص بذلك يُعَاقَب على ما اقترفه.

اليهود من أبناء غرناطة والبيازين والضواحى، وكذا يهود البشرات وكل الأماكن الخاضعة لتلك المعاهدات، لهم حق التمتع بها؛ ومن لم يعتنق منهم المسيحية ينتقلوا إلى بلاد المغرب خلال ثلاثة أعوام سارية منذ الثامن من ديسمبر من هذا العام.

يأمر صاحبا الجلالة بالالتزام بكل ما ورد فى هذه المعاهدات، منذ يوم تسليم حصون غرناطة وفيما بعد. حيث يصدران أوامرهما بمنح وإعطاء كتابهما ومرسومهما الملكى موقعًا باسميهما، ومختومًا بختمهما، ومُصَدقًا عليه سكرتيرهما إيرناندو دى ثافرا Hernando de Zafra . ويكون تاريخه فى المعسكر الملكى فى غوطة غرناطة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٤٩١ من ميلاد مخلصنا."

أرفق صاحبا الجلالة هذه المعاهدة برسالة خطية، لتكون بمثابة الأمر واجب النفاذ، وقد تنبها إلى أن الملك عبد الله يشعر بالندم، وأنه قرر سراً منع تنفيذها؛ وهو حال من يشهد ضرورة تغير مقامه من سيد إلى فرد من الرعية، وأن قلبه يتقلب بعدد ساعات اليوم. والأمر لا يقتصر عليه، بل يشاركه فيه بالفعل العديد من المواطنين، وبخاصة المقاتلون. بيد أن الرسالة كان لها بالغ الأثر، فبين شعورهم بالخوف والخجل، لم يقدروا على التخلى عن تنفيذ ما اتفق عليه أبو قاسم المالح، وخصوصًا عندما يفطن المرء - كما أدركوا هم فى الواقع - أنه لم يحدث من قبل أن مُنِحَ أناس مهزومون قدراً أكبر من الكرامة أو مقدار أقل من التكاليف. فباتوا جميعًا يتطلعون إلى

حلول ساعة تسليم الحصون، حتى ينعموا بالسلام، الذى مَثَّلَ بالنسبة إليهم أمراً غير ضرورى[٥١] بالمرة. وقد دارت فحوى الرسالة على النحو التالى:

" من السيد فيرناندو والسيدة إيسابيل، اللذين أنعم عليهما الرب بمُلك قشتالة وليون وأراغون وصقلية Cicilia وطليطلة وفالنسيا Valencia وغاليثيا ومايوركا Mallorca وإشبيلية وسردينيا وقرطبة ومرسية وجيّان والغرب Algarbes والجزيرة Algecira وجبل طارق؛ وأن يكونا كونت وكونتيسة برشلونة Barcelona، وسادة بيثكايا Vizcalla ومولينا Molina، ودوق ودوقة أثينا Atenas ونيوباتريا Neopatria، وكونت وكونتيسة رويسيّون Ruisellón وسردينيا، وماركيز وماركيزة أوريستان Oristán وغوثيانو ....Goziano الخ. ، إلى العمد، والقضاة، والحكماء، والمثقفين، والفقهاء، والوزراء، والوصفاء، والشيوخ، والوجهاء، والعوام - صغاراً وكباراً - من أهالى مدينة غرناطة الشاسعة والبيازين. لقد أخبرناكم بعزمنا وتصميمنا على محاصرة هذه المدينة انطلاقاً من تلك المدينة التى أمرنا بتأسيسها، وجيشنا متمركز ناحية الغوطة حسبما دعت الضرورة، إلى أن تُنَفَذ إرادتنا وعزمنا، بمشيئة الرب. فلا يخالجنكم فى ذلك شك. ونحن نقسم بالرب فى الأعالى على صحة ذلك، ومن يقول لكم أى شىء يخالف ذلك فهو عدو لكم. ونحن نحضكم عن طريق هذه الرسالة على الإسراع فى الدخول إلى خدمتنا وفى زمرة رعيتنا، فلا تكونوا سبباً فى إهلاك أنفسكم، كما فعل أهل مالقة، الذين لم يرغبوا فى تصديقنا، واستمروا على عنادهم، وسلكوا مسلك الأغبياء، حتى حل بهم الدمار. إذا عجّلتم وبادرتم بالالتحاق بخدمتنا، فسنجزل لكم العطاء. وإن سلمتمونا الحصون، سنؤمنكم على أرواحكم وممتلكاتكم. من يود الانتقال إلى إحدى نواحى إفريقيا، فليذهب فى أمان. ومن يشاء البقاء فليمكث فى داره، محتفظاً بأملاكه ومتاعه، كما كان الحال من ذى قبل. ونحن نقوم بهذا لأنكم أيها

---

(٥١) هكذا ورد فى النص الإسبانى، مع أن السياق يقتضى العكس، أى أن يكون المسلمون قد أرهقتهم الحرب وأصبح السلام ضرورياً بالنسبة لهم. (المراجع)

الغرناطيون أناس صالحون ونبلاء وشرفاء، ونحن نريد أن تلحقوا بركب رعايانا، ولدينا نية الإحسان إليكم. نحن نعدكم ونقسم لكم بعقيدتنا وكلمتنا الملكية، أنكم إذا سارعتم، وأردتم من تلقاء أنفسكم خدمتنا، والإذعان لنفوذنا الملكى، وقمتم بتسليم الحصون، سيتمكن كل فرد منكم من الخروج وحرث أرضه وميراثه، والذهاب حيثما يطيب له فى ممالكنا ليبحث عن قوته حيث يكون. وسوف نأمر بإبقائكم على شريعتكم وعاداتكم والحفاظ على مساجدكم، كما هو شأنكم الآن. من يحب العبور بعيدًا إلى هناك(*) ، فبمقدوره بيع ممتلكاته لمن يريد وقتما يريد؛ وسنأمر بحمله على وجه السرعة، إذا أراد الذهاب فى سفننا، من دون إجباره على دفع أى شىء فى المقابل. فمشيئتنا تتمثل فى تقديم كل خير إليكم، وكذلك الحرص على فائدتكم ومنفعتكم.

احسموا أمركم فى عجالة وانضموا إلى رعيتنا، وأسرعوا بإرسال واحد منكم يجىء إلينا ليحدثنا، ويعقد الاتفاقيات والمعاهدات، وينهى تلك الأمور، ونحن نمنحكم مهلة قدرها عشرون يومًا تتم خلالها تلك المعاملات. تطلعوا الآن إلى ما فيه نفعكم، وحرروا أجسادكم من الموت والأسر. إذا انقضى ذاك الأجل دون أن تلحقوا بركب خدمتنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم . نحن نقسم لكم بديننا أنه بانقضاء المدة، لن نقبل أو نصغى إلى أى حديث حول ذاك الشأن. الخير أو الشر بأيديكم ومنوط بكم: اختاروا ما يحلو لكم. وبهذا نكون قد بيضنا وجوهنا أمام الرب فى عليائه. التاريخ فى معسكرنا الملكى بغوطة غرناطة التاسع والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٤٩١، أنا الملك – أنا الملكة. كتبه إيرناندو دى ثافرا بتكليف من الملك والملكة."

(*) يقصد بلاد المغرب. (المترجمة).

الفصل العشرون

كيفية تسليم المسلمين مدينة غرناطة وحصونها للملكين الكاثوليكيين.

بحلول اليوم المحدد الذى كان يتعين فيه على الملك المسلم تسليم حصون مدينة غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيين، والموافق الثانى من شهر يناير لعام خلاصنا ١٤٩٢، وسنة ٩٠٢ لقيام مملكة العرب، وتعادل سنة ١٥٣٣ للإحصاء القيصرى؛ وذلك وفقًا للإحصاءات العربية التى تعد ميلاد المسيح بعد مرور واحد وأربعين عامًا على حكم قيصر، توجه سيادة الكاردينال بدرو غونثاليث دى ميندوثا Pedro González de Mendoza رئيس أساقفة طليطلة لتسلم حيازتها، يصحبه العديد من الفرسان، وتحت ألويتهم عدد كاف من المشاة. ولأنه بمقتضى المعاهدة يتوجب عدم الدخول عبر شوارع المدينة، فقد سلك الركب طريقًا جديدًا، كان قد صدر الأمر بإنشائه قبل ثمانية أيام، وذلك على هيئة قضيب سكة حديد، حتى يتسنى لهم حمل عربات المدفعية. ويسير الطريق خارج الأسوار ليفضى إلى الموقع الذى يحتوى على صومعة القديس أنطون San Antón، وكذلك أمام باب الطواحين، وصولاً إلى ربوة الشهداء والحمراء.

انطلق الكاردينال ومعه الأشخاص الذين سيحتلون الحصون. لاحقًا توجه الملكان الكاثوليكيان من معسكرهما الملكى فى سانتا فى، وبصحبتهما الجيش بكامل صفوفه، كل فى موقعه، وأخذوا يتقدمون رويدًا رويدًا فى تلك الغوطة الفسيحة الخصبة، حتى عبروا إلى مكان صغير يدعى أرميًا Armilla - يبعد نصف فرسخ عن غرناطة. هنالك توقفت مسيرة الملكة، وسائر تنظيمات الجيش. إبان وصول الكاردينال إلى ربوة

الشهداء ذات السجون المظلمة، خرج فى استقباله الملك عبد الله، حيث نزل إلى أسفل حصن الحمراء - تاركًا فيه عمدته يوسف بن كماشة - وفى أعقاب الحديث الذى دار سرًا لفترة وجيزة مع ذاك الأول، قال الملك المسلم بصوت عالٍ: "اذهب أيها السيد للسيطرة على القصور باسم الملكين القويين، من شاء الله تمليكهما إياها لعظم جدارتهما واستحقاقهما، وكذلك للمعاصى التى اقترفها المسلمون". ثم عرج إلى الدرب ذاته الذى كان الكاردينال قد صعد فيه، بغرض ملاقاة الملك فيرناندو وتقديم فروض الولاء والطاعة إليه. فيما بعد دلف الكاردينال إلى الحمراء، فألفى الأبواب كلها مفتوحة، وقد سلمه إياها ابن كماشة، وقام بفرض سيطرته عليها. فى الوقت ذاته قام باحتلال أبراج الحمراء وكذلك برج كائن بباب شارع بنى غمارة؛ ثم أعطى الأمر برفع الصليب الفضى الذى كان متصدراً مسيرتهم، وكذلك الراية الملكية، وتثبيتهما فوق برج الناقوس، إنفاذًا لما كان قد أمر به صاحبا الجلالة، معلنًا بذلك إشارة بسط السيطرة على الحصون.

حينئذ كان الملك فيرناندو قد تقدم فى المسير، وأمسى يحث الخطى صوب المدينة فى أعقاب الكاردينال. أما الملكة إيسابيل فباتت - هى وسائر الرجال الآخرون - فى موقعهم بأرميًا يشوبهم حذر بالغ، حيث تراءى للملكة أن الإشارة قد تأخرت فى الوصول إليها. فلما أبصرت الصليب والراية أعلى البرج، خرت إلى الأرض جاثيةً على ركبتيها فى ورع، لتتوجه بوافر الشكر إلى الرب على ذاك الفتح. كما شرع أعضاء مصلاها الملكى فى إنشاد ترنيمة الشكر للرب Te Deum Laudamus. توقف الملك فيرناندو على ضفاف نهر شنيل، فى الموقع الذى يضم حاليًا صومعة القديس سيباستيان San Sebastián، ولحق به هناك الملك المسلم - يصحبه نفر من فرسانه وخدمه- ثم اقترب من الملك، وهو على حاله ممتطيًا صهوة فرسه؛ لأن جلالته لم يسمح له بالترجل، وقَبَّلَ ذراعه الأيمن. فى أعقاب الانتهاء من تقديم فرض الطاعة ذاك، افترق الملكان: فتوجه الكاثوليكى إلى الحمراء، وعاد الوثنى[٥٢] أدراجه إلى أندرش.

---

(٥٢) لاحظ فكرة المؤلفين الإسبان فى القرن السادس عشر عن المسلمين (المراجع).

أراد البعض القول إنه رجع أولاً إلى المدينة، وقصد أحد منازل القصبة التى كان قد جمع أفراد عائلته بها؛ بيد أن بعض الموريسكيين الطاعنين فى السن - ممن يزعمون أنهم كانوا حاضرين فى ذلك اليوم - شهدوا لنا بأن ذلك الأخير لم يقم سوى بإظهار توقيره للملك الكاثوليكى، ثم عاد إلى البشرات؛ لأنه حينما غادر الحمراء، كان قد بعث بذويه قبله، وهو إبان وصوله إلى أحد التلال القريبة من موقع بادول - التى تستخدم حاليًا لاستكشاف المدينة - دار على عقبيه ونظر إليها، واضعًا نصب عينيه القصور العامرة التي فقدها. ثم شرع يتنهد بقوة قائلاً الله أكبر، التى توازى عندنا مقولة Dominus Deus Sabaoth، وتعنى السيد القوى رب المعارك. وحينما أبصرته أمه يتنهد ويبكى قالت له: "ابك يا بنىّ كالنساء على مُلك لم تدافع عنه كالرجال". لاحقًا أطلق المسلمون على ذلك التل اسم فج الله أكبر Fex de Alabaquibar تخليداً لذكرى تلك الواقعة[٥٣].

لنعد إذن إلى مسيحيينا الذين توجهوا إلى المدينة، فصعد كل من الملك والملكة وسائر الفرسان والسادة إلى الحمراء، وعند باب الحصن قام القائد يوسف بن كماشة بتسليمهما مفاتيحها. وقد أمر جلالتهما بإعطائها فيما بعد إلى السيد إنييغو لوبيث دى ميندوثا، كونت تينديًا وابن عم نيافة الكاردينال بدرو غونثاليث دى ميندوثا، الذى كان أول قائد عام لتلك المملكة. كان صاحبا الجلالة يدركان مكانة الكونت على ضوء الخدمات الجليلة التى قدمها لهما، فى هذه الحرب التى تقلد فيها منصب القائد العام لجبهة الحامة، ولاحقًا لمدينة قلعة يحصب، أو فى عام ١٤٨٦ عندما ذهب امتثالاً لأوامر صاحبى الجلالة، ليرسى أسس الوفاق بين كل من فيرناندو ملك نابولى Fernando de Nápoles والأب إنوثينثيو الثامن Inocencio VIII، فعقد بينهما اتفاقًا، وترك وراءه كل أمراء إيطاليا - الذين كانوا قد تهيئوا لشن الحرب - ينعمون بالسلام.

---

(٥٣) لم نعثر على مصدر عربى يتحدث عن هذا الاسم الجديد. (المراجع).

مع دخول صاحبى الجلالة إلى الحمراء، احتل قادة المشاة باقى الحصون والأبراج والأبواب سلميًا، دون أن يحدث شغب. حيث أغلق المسلمون على أنفسهم أبواب منازلهم، ولم يظهر منهم سوى من تعين عليه الخدمة فى أحد المواضع. فيما بعد صعد وجهاء الناس لتقديم الاحترام وتقبيل أيادى صاحبى الجلالة، وعبروا عن عظيم سرورهم لأنهما أضحيا سيديهما. وبمرور بضعة أيام، عندما تبين إنصاف هذين الملكين، وأنهما يحفظان لهم ما عاهداهم عليه، حذا حذوهم عدد من المواقع فى الجبل والبشرات، وكذا سائر البقاع التى لم تكن قد قدمت فروض الطاعة حتى ذلك الحين.

الفصل الحادى والعشرون

كيف عين صاحبا الجلالة سيادة الراهب إيرناندو دى تالابيرا Hernando de Talavera رئيساً لأساقفة غرناطة، وكيف شرع هو فى محاولة التحاور مع المسلمين.

بعد الاستحواذ على مدينة غرناطة وجميع الحصون، وتأمينها بالمقاتلين ورجال الحرب، بدأ الملكان الكاثوليكيان فى إظهار عظمتهما، والمن بالهبات والعطايا بشكل عام، وخاصةً على كل من قام بخدمتهما فى أثناء هذه الحرب. فوزعا ما اكتسباه من أراض، وولّيا من يقوم على شئون القضاء والحكم السديد، وذلك لإرساء الطمأنينة فى نفوس المسلمين الذين باتوا رعايا لهما؛ وأيضاً لتوطين وزيادة أعداد الأشخاص الذين يفدون من شتى البقاع، وذلك فى ثبات وعزيمة راسخة، حتى بدا وكأن تلك المسألة يقودها الرب لتعزيز عليائه ومجده. وأمسى بلاطهما يموج بفرسان بارزين وبواسل، من ذوى الحنكة والمراس فى شئون الحرب، وكذلك العديد من الرجال المتمرسين على شئون القضاء والحكم، وعلماء لاهوت واسعى الشهرة - خبراء بحياة القديسين والمنهاج الأمثل فى أمور العقيدة - فكانا يستحثان أشخاصاً على تلك الشاكلة لإمدادهما بالنصح، بدلاً من اللجوء إلى الملوك الآخرين من أصحاب الأبهة والعظمة. لذلك فقد أصابوا فى كل ما فعلوه، ولم يعد هناك شيء لا يقهر أمام أنصال سيوفهما.

كان ضمن رجال الدين الذين ضماهم إلى مجلسهما كاهن يدعى السيد إيرناندو دى تالابيرا، وهو راهب انضم إلى سلك الرهبنة على مذهب الأب الجليل القديس خيرونيمو .San Jerónimo وهو من مواليد مدينة تالابيرا التى تقع ضمن إطار

أسقفيات طليطلة. وهو رجل ذكاؤه متوقد وذهنه حاضر، كما أنه واعظ جليل الشأن، غزير العلم بالآداب المقدسة وفلسفة الأخلاق؛ وعلاوةً على ذلك كله نجده يتمتع بمقام رفيع لدى صاحبى الجلالة نظراً لنصاعة حياته ومذهبه. وقد شغل منصب رئيس دير القديسة ماريا دى برادو **Santa María de Prado**، الكائن فى بلد الوليد، لمدة تربو على عشرين عامًا ، كما أنه هو مؤسسه. عندما تناهت إلى مسامع صاحبى الجلالة أنباء عنه أرسلا فى طلبه، وقلداه منصب قسيس الاعتراف خاصتهما والناصح لهما. ثم عيناه أسقفًا لآبلة **Avila**، حتى اصطحباه معهما فى أثناء فتح مملكة غرناطة، حيث أسهمت خطط ونصائح وصلوات ذلك الرجل الصالح فى قدرٍ ليس بالصغير من الأحداث الجيدة التى وقعت خلالها.

أما هو بدوره، فحينما أدرك أن المدينة بدأت تعمر بالمسيحيين، وأنه أمست هناك فرصة مواتية لغرس رعية عابدة لرب السماء يرشدها أحد قساوسة الرب، اتفق على مغادرة البلاط مؤقتًا - حيث كان يتمتع بالحظوة وحسن المعاملة - ليعيش حياةً عسيرةً يحفها الكثير من المخاطر الجسدية. وقد توسل إلى الملكين الكاثوليكيين لكى يزودا أسقفية آبلة بمن يقوم على خدمتها، وطلب منهما أن يدعاه ينهى خدمته للرب فى كنيسة غرناطة الجديدة، مع أولئك الأشخاص الجدد. فلمّا أُخْتِير رئيسًا لأساقفة غرناطة، صدّق البابا أليخاندرو السادس **Alejandro VI** على اختياره، وأرسل إليه الإزار(*) - شعار رئاسة الأساقفة - الذى سلّمه إياه - فى توقير بالغ - السيد لويس أوسوريو **Luis Osorio** أسقف جيّان، الذى أتى مكلفًا بذلك؛ يعاونه كل من السيد بدرو دى توليدو **Pedro de Toledo** أسقف مالقة، والسيد الكاهن غارثيا كيخادا **García Quejada** أسقف وادى آش.

(*) علامة القبول البابوى، الذى يمنحه البابا لرؤساء الأساقفة ونفر من الأساقفة. وهو عبارة عن زنّار أو حزام من القماش الأبيض شُغِلَت عليه صلبان سوداء، ويُعلّق على الكتف ليغطى الصدر (المترجمة).
Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II, pag. 1508.

وحتى لا يجرؤ أحد على الزعم أن الطمع فى دخل أكبر كان هو الدافع وراء تركه لأسقفية أبلة، لم يشأ هو أن يتم إعطاؤه أكثر من القدر اللازم ليعيش حياة معتدلة دون بذخ. وهكذا خُصصَ له ألفى ألفى ريال مرابطى فى العام، وكانت مخصصات أسقفية أبلة تفوق ذلك بكثير. وقد تجلت إرادة ذلك المطران الصالح، لأنه منذ اليوم الذى تولى فيه منصبه، ابتعد عن شئون البلاط إلى حد جعل من المستحيل إسناد أية مهمة أخرى إليه؛ فيما عدا خلاص أرواح الموحدين، وتنصير الملحدين، وتشييد الكنائس، وحسن إدارتها. وبهذه المناسبة فقد أصاب الملكان الكاثوليكيان فى النصيحة التى اتبعاها – وكانت كل أفعالهما صائبة – حيث أسندا أمر تلك الأغنام الجموحة الفظة، غير المعتادة على سلاسة عبودية الرب، إلى راع مخضرم ومحنك فى الدعوة، حتى يضحى هو السبيل إلى تجميعهم فى قطيعه. يا له من نصر سعيد! ويا للفوز المفرح الذى وهبه الرب فى تلك الآونة إلى مدينة غرناطة الشهيرة! كان من الممكن أن يظفر بها الأمراء المسيحيون فى أزمنة أخرى، ولكن من حسن الطالع أن النصر جاء بالطريقة التى تم بها، فكان من أجل المسيح عيسى. وذلك من خلال سعى وتخطيط وجهد وصلوات ذاك المطران الصالح، وكذلك حديثه العذب ونمط الحياة الطاهرة التى عاشها؛ لأن تلك الأفعال، التى منحها الرب من فضله، كان لها مكانة فى نفوس المسلمين. فبات اسم رئيس الأساقفة، الذى كانوا يلقبونه فقيه المسيحيين الأكبر، لا يضاهيه أى شىء تقديراً وتوقيراً، وهو أكثر شىء محبب إلى أسماعهم. وهو ما نجم عنه مجىء الكثيرين للتنصر من تلقاء أنفسهم وبرغبتهم(٥٤)، ومن حسن الحظ أنهم تمتعوا بقدر من الحمية يفوق غيرهم ممن قاموا بهذا لاحقاً. إلى جانب هذه النعمة العظيمة التى حلت بالمسلمين أضحى وجود هذا المطران فى تلك المدينة ذا أهمية بالغة لدى المسيحيين؛ لأن غالبية الأفراد الذين وفدوا لتعميرها كانوا رجال حرب وقتال وأناس دخلاء، وكان العديد منهم غارقين فى المفاسد والخطايا التى عادةً ما تسفر عنها الخدمة

(٥٤) كانت تلك هى حجة الملك الكاثوليكى حين أرسل إليه سلطان مصر يسأله عن تنصير المسلمين قسراً. (المراجع)

العسكرية؛ لذا فقد كان مجهوده ومسعاه الحميد وحياته الواسعة لازماً لإعادتهم إلى جادة الصواب.

وقد شرع في بادئ الأمر في تعليم المسلمين أسس عبادة الرب، فصار ينقلها لهم بكلمات لم تكن ثقيلة على صدور الفقهاء أنفسهم الذين كانوا يُدْعَون لمعرفة مذهبه؛ ليس هذا فحسب، بل إن الكثيرين منهم قدموا للاستماع إليها دون أن يطلبهم هو. وكان قد خصص بيوتًا بعينها - تدعى بيت العقيدة - لمن يرغب في تغيير ديانته، حيث اعتاد ارتيادها ليعظهم ويرشدهم إلى العادات القويمة، عن طريق مترجمين أمناء. ومن أجل الغاية ذاتها، سعى في حرص بالغ أن يتعلم بعض القساوسة اللغة العربية، وقد أراد هو بنفسه تعلمها في شيخوخته، أو على الأقل الجزء الذي يكفيه منها. حتى يتسنى له إرشادهم إلى الوصايا وتعاليم العقيدة والصلوات، وكذلك الإنصات إلى اعترافاتهم. حظي منصب رئاسة الأسقفية بشغل الراهب إيرنانو دي تالابيرا له على مدار خمسة عشر عاماً، وقد توفي في سنة ١٥٠٧ على أثر إصابته بوباء فتاك.

خلفه السيد أنطونيو دي روخاس Antonio de Rojas، وكان بطريركًا ورئيسًا للمجلس الملكي، وفي عصره -حوالي عام ١٥٢٣ وفي يوم الاحتفال بذكرى عذراء مارس Nuestra Señora de Marzo - تم وضع اللبنة الأولى للكنيسة الكبرى. وبوفاته أعقبه في رئاسة أساقفة غرناطة السيد فرانثيسكو دي إيرّيرا Francisco de Herrera، وكان رئيسًا للمحكمة الملكية، وقد توفي في سنة ١٥٢٥ لميلاد سيدنا. أعقبه السيد بدرو بويرتوكارّيرو Pedro Puerto Carrero الذي توفي قبل أن يتولى مهام منصبه. فلما كان الإمبراطور موجوداً في غرناطة في عام ١٥٢٦ قام بتقليد ذاك الكرسي للكاهن بدرو راميريث دي ألبا Pedro Ramírez de Alba، رئيس دير القديس خيرونيمو بغرناطة، وقد شيد ذاك الأخير مدرسة لقساوسة الجوقة - وكان عددهم ثلاثين شخصًا - وتوفي في سنة ١٥٢٩ لميلاد المسيح. وقد خلفه فيما بعد السيد غاسبار دي أبالوس Gaspar de Avalos أسقف وادي آش، الذي أنشأ الكلية الملكية والجامعة، حيث يُدَرِّس علم

اللاهوت والقانون. كما أسس مدرسة للأطفال من أبناء الموريسكيين تطعمهم وتكسوهم وتعلمهم، ويوجد بها بيت للصدقات. ثم قُلِّدَ رئاسة أساقفة سانتياغو، وخلفه في غرناطة السيد أنطونيو نينيو دي غيبارا Hernando Niño de Guevara رئيس تلك المحكمة، الذي أضحى لاحقًا رئيسًا المجلس الملكي وأسقفًا لسيغوينثا Següenza وبطريركًا؛ وقد ظل في رئاسة الأساقفة خمس سنوات. ثم تولى المنصب السيد بدرو غيرّيرو Pedro Guerrero، ومكث فيه تسع وعشرين سنة، وكان عضواً بمجمع ترينتو(*). بموته تم انتخاب السيد خوان مينديث دي سالبا تيّرا Juan Méndez de Salvatierra، الكاهن القانوني لكوينكا Cuenca، وقد تولى مهام المنصب نيابةً عنه الأب ميخيّا دي لاسارتي Mejía de Lasarte رئيس محكمة تفتيش غرناطة، وذلك في التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٥٧٧. بانقضاء أجله تولى رئاسة الأساقفة السيد بدرو باكا دي كاسترو Pedro Vaca de Castro، الذي كان رئيسًا لمحكمة بلد الوليد Valladolid، ومن قبلها محكمة غرناطة، وهولا يزال على قيد الحياة. وفي عصره شاء الرب أن يظهر إلى العالم رفات الشهداء الذين عانوا في سبيل العقيدة المقدسة في زمن وثنية نيرون Nerón، وذلك في جبل إيّبوليتانو Illipolitano، الذي يُطلَق عليه الجبل المقدس(٥٥) حاول الملكان إمداد المتنصرين الجدد بكل أولئك المطارنة، الذين أُخْتِيروا بناءً على مذهبهم وأعرافهم، لتحسين تمكنهم من أصول العقيدة. يكفي ذلك في الحديث عن رؤساء الأساقفة، لنعد إلى التاريخ الذي نحن بصدده.

في عام ١٤٩٣ انتقل الملك الزُغيبي إلى بلاد المغرب، وباع إلى الملكين الكاثوليكيين ما كانا قد وهباه من أماكن ومخصصات في البشرات، وذلك بعد أن تملّكها وتمتع بها لما يربو على العام بقليل. وقد أبرم ذاك البيع القائد الذي أسلفنا ذكره - والمدعو

(*) نسبةً إلى مدينة ترينتو الكائنة بتيرول، والتي كان يُعْقَد بها مؤتمرٌ سنويٌ عالميٌ بدءًا من عام ١٥٤٥، كاستجابة إلى الحركة التي ظهرت لتنادي بإعادة توحيد كل الكنائس المسيحية. (المترجمة)

(٥٥) هو جبل في غرناطة لا يزال يحمل هذا الاسم "ساكرومونتي". (المراجع)

يوسف بن كماشة – وكان مفوضًا من قبله، مقابل ثمانين ألف دوقية؛ وكان صاحبا الجلالة حينئذ فى أراغون. وقد استلم ذاك الأخير النقود، وحمّلها على الدواب لينقلها إلى لاوشار (القصور) Lauxar فى أندرش، وكان سيده أبو عبد الله موجودًا بها. فقام بوضعها أمامه وخاطبه على النحو التالى: "سيدى! لقد قمت ببيع أملاككم، وها هو ثمنها كما ترون. لقد أردت أن أجنبكم المخاطر؛ لأنه طيلة وجودكم بين المسلمين، لن يبرحوا محاولة ارتكاب أمور تُشْعِركم بالضيق وتسبب عدم الاستقرار فى هذه الأراضى، إلى الحد الذى لن تنعموا معه أنتم أو من يقوم على خدمتكم بالطمأنينة، ولن يسعكم سوى فقد النذر اليسير الذى تبقى لكم فيه إزاء أقل فرصة سانحة. ويمكنكم شراء أملاك أفضل فى بلاد المغرب بهذه النقود. بمقدوركم العيش هناك فى أمانٍ وراحةٍ أكثر مما ستجدونه فى هذه الأرض، التى كنت فيها ملكًا، ولا تطمح أن تتبوأ تلك المكانة بعد الآن"(٥٦).

أنبئنا أحد شيوخ المسلمين أن الزُغيبى – عقب إتمام البيع – أظهر أسفًا شديدًا على ذلك، حتى أنه كان ليقتل القائد ابن كماشة لو لم يصرفوه من أمامه. عندما أدرك فى نهاية الأمر أنه ما من سبيل للتراجع عما حدث، عاد أدراجه من دون أية أموال(٥٧)، وبعد مرور أيام قلائل رحل مع أهله وذويه إلى مدينة فاس، على متن سفينة ضخمة أمر صاحبا الجلالة بمنحه إياها. وقد عاش هناك لأمد طويل، حتى خرج مع مولاى حامد المرينى Muley Hamete el Merini إلى الحرب لقتال الإخوة الأشراف ملوك المغرب. وقد قُتِلَ فى معركة نهر الزنوج عند المعبر الذى يطلقون عليه بواكوبا (بو عقوبة ؟) Buacuba. يا لسخرية واستهزاء الأقدار التى ساقت المنية إلى ذاك الملك فى أثناء دفاعه عن مملكة غريبة، بينما لم يجرؤ على الموت دفاعًا عن مملكته!

---

(٥٦) النص على هذا النحو يُفهَم منه أن ابن كماشة هو الذى اتخذ قرار بيع ممتلكات أبى عبد الله الصغير. (المراجع).

(٥٧) النص الإسبانى يتضمن هذا الخطأ إذ ترد كلمة " sin " ، وهو خطأ دون شك، والصواب " su" ، أى أن أبا عبد الله حمل أمواله وأهله ورحل إلى بلاد المغرب. (المراجع).

الفصل الثانى والعشرون

كيف بدأ الشروع فى دعوة مسلمى غرناطة إلى العقيدة الكاثوليكية، أو إرسالهم إلى بلاد المغرب.

استشهد بعض المطارنة، وغيرهم من الأشخاص المتدينين(٥٨)، بفوز الملكين الكاثوليكيين بمدينة غرناطة وسائر بقاع المملكة، لمطالبة جلالتهما فى إلحاح شديد، استنادًا إلى أن ربنا قد أنعم عليهما بنعم جليلة - إذ وهبهما نصرًا كالذى حققاه - لغيرتهما على مجده وسؤدده، وذلك حتى يصدرا الأمر لمتابعة اجتثاث اسم وعقيدة محمد من إسبانيا بأسرها، آمرين المسلمين المستسلمين الذين يودون فى البقاء فى هذه الأرض بالتعميد، ومن لا يرغب منهم القيام بذلك فعليه بيع أملاكه والذهاب إلى بلاد المغرب، وقالوا إن هذا الأمر لا يخرق بنود المعاهدة التى عُقِدَت معهم إبان استسلامهم. بل إنه تعظيم لفائدتهم بما ينفعهم فى خلاص أرواحهم، كما يفيد فى إرساء الطمأنينة والسلام الدائمين فى تلك المملكة. فمن المحقق أن أهلها لن يسالموا مسيحيين، أو يحبوهم أبدًا، أو يحتفظوا بولائهم للملوك طالما استمسكوا بشعائر وطقوس عقيدة محمد، التى تجبرهم على المعاداة الشديدة لما هو مسيحى. بيد أنه على الرغم من قداسة وعدالة هذه الاعتبارات، فإن صاحبى الجلالة لم يعزما على استخدام الشدة مع الرعايا الجدد؛ لأن الأرض لم يكن قد سادها الهدوء بعد، والمسلمون لم

(٥٨) هنا نفهم أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وراء نقض معاهدة تسليم غرناطة. (المراجع).

يكونوا قد تخلوا تماماً عن أسلحتهم؛ وإذا ما حدث وقاموا بالثورة من أجل شيء يبلغ في نفوسهم تلك المكانة، سيضحى ذلك بمثابة العودة إلى الحرب من جديد.

إلى جانب ذلك، فقد وضع الملكان نصب أعينهما الإقدام على فتوحات أخرى، لذا لم يرغبا على الإطلاق أن يُقَال أمر شائن عن كلامهما وتوقيعيهما الملكيين؛ خاصةً وأن المسلمين أنفسهم أخذوا يهجرون عقيدتهم، ويوجد أمل أن يؤدى اتصالهم في الشئون الحياتية مع المسيحيين، وكذا معالجة ومناقشة أمور العقيدة، إلى إفهامهم الخطأ الذى يقترفوه، وتركهم إياه ليدلفوا إلى العلم الحقيقي بالدين، كما فعل في أزمنة سابقة الكثير غيرهم من الأمم البدائية، التى انقادت لمشيئة المنتصرين وأرادت محاكاتهم. وحتى يتم ذلك في مودة ورحمة، أصدرا أوامرهما إلى الحكام والعمد والقائمين على شئون العدالة في سائر ممالكهم بمحاباة المسلمين، وعدم الموافقة على سبهم أو إساءة معاملتهم. وأن يسعى المطارنة ورجال الدين إلى تعليم أمور الدين إلى من يود سماعها طواعيةً، في رفق وإظهار للمودة، دون تعرضهم لأى ضيم جراء ذلك.

الفصل الثالث والعشرين

كيف أمر صاحبا الجلالة، عندما علما بتحول المسلمين إلى الإيمان، بذهاب سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث دى ثيسنيروس أسقف طليطلة إلى غرناطة، لمعاونة أسقفها فى عمل ينطوى على كل هذه القدسية.

مع بداية رئيس الأساقفة الصالح فى حكم وإدارة رعاياه الجدد، من أجل تخليصهم من الضلال الذى كانوا يعيشون فيه لتزهر ثمار الخلاص، أرسل الملكان الكاثوليكيان - من أجل إمداده بمن يعينه فى عمل يحمل ذاك القدر من القدسية - فى طلب سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث دى ثيسنيروس، الراهب التابع لجمعية القديس فرانثيسكو San Francisco، والمولود بقرية توردي‌لاغونا Tordelaguna. وقد أُختير لجدارته، وكثرة فضائله، وبلاغته، وقدسية حياته وطباعه - إبان توليه الرئاسة الإقليمية للجمعية - كرئيس لأساقفة طليطلة فى سنة ١٤٩٥ لميلاد المسيح. وذلك على أثر وفاة سيادة الكاردينال بدرو غونثاليث دى ميندوثا ، الذى وافته المنية يوم الأحد الحادى عشر من يناير فى تلك السنة. إذ ذاك انشغل هذا المطران بتأسيس المدرسة التى شيدها فى بلدة قلعة عبد السلام. وقد تركها فيما بعد فى رعاية زميله بالتانسيو Baltansio ليتوجه إلى غرناطة، التى قصدها صاحبا الجلالة فى شهر يوليو من عام ١٤٩٩، ومكثا بها حتى منتصف شهر نوفمبر، حيث توجها إلى إشبيلية؛ وكانا قد أسندا إليه متابعة تنصير المسلمين إلى جوار رئيس أساقفة غرناطة - وذلك فى لين وبمنهاج لا يحملهم على الثورة.

أمـا الطريقـة التى سلكهـا المطرانان لإجـراء ذاك الشـأن بالغ الأهمـيـة فكانت استدعاء الفقهاء والنسّاك ذوى الرأى الأبرز بين المسلمين، لمحاجـجـتهم بمفردهم فى حوارٍ جيد، وإفـهـامـهم الأمـور المتعلقـة بالديانة المسـيحـيـة، ليس عن طريق الشـدة أو العنف، وإنما بأسانيد وعبارات معتدلة. وكانوا يعالجون تلك المسألة بقدر كبير من التـواضـع والدعـة؛ وعقب التجـادل مـعـهم لفتـرة طويلة، كانا يردانهم وهـم مـقـعـمـون بالسعادة، حيث يقدما إليهم ثيابًا وأشياء أخرى كثيرة، لكى لا يتخلفوا عن العودة إلى المناقشة فى آونة أخرى. عندما شهد الفقهاء والنسّاك السلاسة التى يتعامل بها معهم القسـيـسـان، والأعمـال الصـالحـة التى يؤدياها، وأنهـمـا يسـوقـان الحـجـة لإقناعـهم، استنكروا عقيدتهم الإسلامية. كما أنهم فى الوقت عينه، رغبوا فى الاستمتاع بالحرية كشأن المتنصرين؛ لذا شرع بعضهم فى أخذ أسانيد العقيدة الكاثوليكية وعرضها على الشـعب، مؤنبين إياهم بأن دين مـحـمد باطل، وأنه أحرى بهم اعـتناق عـقـيدة المسـيح عـيسى. بات لتلك التـوبيخـات بالغ الأثر، حـتى أنه فى غـضـون أيام أقبل الكثـيـر من الرجال والنساء لطلب العماد المقدس بتأييد من فقهائهم أنفسهم. ففى يوم واحد تم تعميد ثلاثة آلاف شخص، وكانوا فى عجلة شديدة من أمرهم، حتى إنه لم يكن تعميد كل منهم على حدة أمرًا ممكنًا. حيث تحتم على رئيس أساقفة طليطلة رشـهم بمرشـة الماء المقدس فى مراسم تعميد عام(٥٩) وفى احتفالية أمنا العذراء تحوّل جامع البيّازين إلى كنيسة للطائفة التى تتبع القديس سالبادور San Salvador. وكانت الأمور ستـأخذ مـجـراها دون شـغب أو قلاقل، لو لم يقم نفر من المسـتنكرين الذين تأسوا لرؤية هذا العمل الجليل بإثارة الشـغب ومنع تنفيذه، رغمًا عن أنه تم العمل به فيما بعد عن طريق اللجوء والتأرجح ما بين الرجاء والشدة، كما سنذكر الآن.

(٥٩) هذا الفـصل من بنات أفكار المؤلف واسـع الخـيـال، فـمن الثـابت وثائقيًا أن ثيـسنيـروس - لمّا رأى أن المسلمين غير راغبين فى التنصر، سوى عدد محدود جدًا منهم لأسباب مختلفة - هددهم بالقتل إن لم يقبلوا التـعـمـيد؛ وهكذا تنصـر الآلاف فى يوم واحد، لدرجـة أنه لم يتـمكن من تعـمـيـد كل واحد منهم بمفرده، فلجأ إلى رش ماء التعميد على جموع المسلمين. فيما بعد احتج الموريسكيون بهذا الأمر للدفع ببطلان تعميدهم، وعدم خضوعهم - بالتالى - لسلطة محكمة التفتيش. (المراجع)

الفصل الرابع والعشرون

كيف أمر رئيس الأساقفة بإلقاء القبض على الثغرى Zegrí لمنعه تنصير المسلمين، وكيفية مجيئه للتنصر.

أمسى هناك العديد من المسلمين فى البيّازين ومدينة غرناطة ممن يعارضون التنصير علانيةً، حيث بدا لهم اللجوء إلى ترك الديانة التى علمها لهم أسلافهم أمراً صعباً، وقد ألمهم رؤية طائفة محمد القديمة تتبدد فى شتى أنحاء إسبانيا. لمّا أدرك رئيس أساقفة طليطلة أن الأمر مرده إلى بعض الرجال البارزين، خشى أن يعيق هؤلاء من جديد مفعول ما يقوم به، وأمر بإلقاء القبض على من يُعْتَقد فى كونهم أشد المعارضين لمظاهر العقيدة الكاثوليكية. كان من بين المعتقلين شخص يدعى الثغرى أثاتور(٦٠) Zegrí Azaator، وهو رجل ذو مكانة يتمتع بحسن الإدراك فيما يتعلق بالشئون المعنوية، ولكنه من جهة أخرى متعجرف ومتكبر، لكونه من سلالة ملوك غرناطة. كان ذلك الشخص معارضاً بشدة لتنصير المسلمين، فقرر سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث - منحّيًا أى مشاعر إنسانية جانباً- إخضاعه لعبودية الرب قسراً؛ لأن الحجج المنطقية لا تفيد معه. فجعل يضعه فى سجن ضيق، وأمر أن يحبس معه - لكى يرشده بحرص إلى الطريق - أحد القساوسة خاصته ويدعى بدرو دى

(٦٠) هو حامد الثغرى، وقد وردت سيرته فى رواية "غرناطة" لرضوى عاشور (المراجع)

ليون Pedro de Leóon، الذى تحلى بشجاعة الأسد[٦١] وأخذ يسلك مع الثغرى منهاجًا حوَّله من الإنسان المغرور غير القابل للترويض كما كان إبان تسليمه للقسيس إلى شخص متواضع ووديع، متوافق مع مشيئة المطارنة فى كافة الأمور. وفى غضون أيام قلائل طلب أن يُحْمل إلى فقيه المسيحيين، سواء حدث ذلك باللجوء إلى القوة، أو على الأرجح بإلهام إلهى. فعُرِضَ مكبلاً أمام رئيس أساقفة طليطلة، وطلب الإذن لكى يتمكن من الحديث إليه فى حرية، قائلاً إن عليه أن يأمر برفع الأغلال عنه؛ لأنه لن يروق له ما سيقوله ويفعله فى أثناء وضعه إياها. وعندما أُمِرَ بإزالتها خر ساجدًا على ركبتيه، مقبلاً الأرض ثم يد رئيس الأساقفة كما جرت العادة عند المسلمين، وقال: "سيدى، أود أن أكون مسيحيًا، وأنا أقوم بذلك طواعيةً، فقد أتانى وحى من الرب يأمرنى فيه بذلك، وأنا على يقين أنه يدعونى إلى جواره عبر هذا الطريق".

أحس رئيس الأساقفة بسرور غامر لرؤيته وقد غير ديانته، حيث أمر بإلباسه ثيابًا جديدةً ثم عَمَّده. رغب الثغرى أن تتم تسميته بغونثالو إيرنانديث Gonzalo Hernandez، تيمنًا بغونثالو إيرنانديث دى كوردوبا Gonzalo Hernóndez de Cordoba شقيق السيد ألونسو دى أغيلار Alonso de Aguilar، حيث كان على أتم دراية بمجهوداته وشجاعته فى تلك الحرب، وعلاوةً على ذلك فهو يدرك أن رئيس أساقفة غرناطة يُكِنّ له الحب الشديد. من هنا أتى مسلمون آخرون لتقبل ماء التعميد، وهكذا أخذوا يتنصرون يومًا تلو الآخر، دون أن يجرؤ الفقهاء[٦٢] أو أى شخص آخر على عرقلتهم، على الأقل علانيةً. وقد أخذ منهم رئيس أساقفة طليطلة عددًا ضخمًا من نسخ كتب عربية فى شتى المناحى، فقام بإحراق ما يتناول منها شئون الطائفة، وأمر بتجليد الكتب الأخرى وإرسالها إلى كليته فى قلعة عبد السلام لكى توضع فى مكتبته.

---

(٦١) لة "ليون" فى الإسبانية معناها "أسد"، وكان ذلك القسيس مشهورا باستخدام صنوف التعذيب مع من لا يريد التنصر طواعية. انظر كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" تأليف بدرو لونغاس، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠ (المراجع).

(٦٢) هنا يناقض المؤلف نفسه، فقد زعم سابقًا أن الفقهاء اقتنعوا بالمسيحية وأقنعوا بها غيرهم. (المراجع).

الفصل الخامس والعشرون

كيف أشعل مسلمو البيّازين غرناطة بالثورة لأول مرة على خلفية التنصير، والمنهج الذى سُلِكَ لتهدئتهم.

تراءى للمطرانين – وخاصةً رئيس أساقفة غرناطة – إنه ليس من المستساغ أن يعيش فى غرناطة ومملكتها رجال ونساء مرتدّين عن دينهم وأبناء لمرتدّين يعيشون فى كنف طائفة محمد – وكان المسلمون يلقبونهم بالشيس[٦٣] elches – بعد فتحها على أيدى أمراء كاثوليكيين مخلصين. وعندما حاولوا اجتذابهم إلى الإيمان بالمحبة والمنهج القويم، وجدوا بينهم متصلبين لم يرغبوا فى اعتناق المسيحية، حتى لا يتخلوا عن خطاياهم وحماقاتهم، لذا فقد اتفقا على اتباع الشدة معهم وأمروا مأمورى القضاء بإلقاء القبض على بعض المعاندين. ثم حدث أن صعد ساثيدو Sacedo خادم رئيس أساقفة طليطلة فى أحد الأيام إلى البيازين، برفقة أحد مأمورى القضاء الملكيين ويدعى بيلاسكو دى باريّونويبو Velasco de Varrionuevo لإلقاء القبض على امرأة ابنة واحد من المسلمين، وبينما هو يقتادها أسيرة عبر باب البنود شرعت فى إطلاق صيحات عالية قائلةً إنهم يسوقونها لتضحى مسيحية رغمًا عنها، ومخالفةً لبنود معاهدة السلام. فتجمع حشد كبير من المسلمين، وكان بينهم من يكنّ العداء لذلك المأمور نظراً للاعتقالات التى كان قد قام بها سلفًا، فبدئوا يغلظون له فى القول، ولما رد عليهم فى

(٦٣) لفظ كان يطلق على من دخل فى الإسلام من المسيحيين، فكأن السلطات كانت ترى أن هؤلاء عليهم أن "يعودوا" إلى دين جدودهم (المراجع)

استعلاء، ضربوه فى غضب شعبى عارم وأردوه قتيلاً عن طريق إلقاء حجر على رأسه من إحدى النوافذ، وعقب وفاته ألقوا به فى المرحاض. كما كانوا سيقتلون ساثيدو بدوره، لو لم تخفه إحدى المسلمات أسفل سريرها، حيث قضى ذلك اليوم وجزءًا من الليل مختبئًا، حتى تسنى لها إرساله آمنًا إلى المدينة.

بعد موت المأمور شهر المسلمون أسلحتهم وانطلقوا يهتفون باسم محمد، منادين بالحرية وقائلين إن بنود معاهدة السلام لا تُحْتَرَم معهم. واحتلوا الشوارع والأبواب ومداخل البيّازين، وتحصنوا ضد مسيحيى المدينة وشرعوا فى قتالهم، ومع حلول الليل تفاقمت أعمال الشغب. وعندما فطنوا إلى أن رئيس أساقفة طليطلة هو الباعث والمحرك وراء كل ذلك، ولمّا كانوا أناسا سئموا من مشاهدة الهمة العالية التى كان يبذلها لتحويلهم إلى مسيحيين، هرعوا إلى مسكنه الكائن بالقصبة وحاصروه بداخله؛ وقد دافع هو عن نفسه بجسارة. على الرغم من أن البعض قد نصحه بمغادرة المكان، وهو ما كان بمقدوره أن يفعله فى يسر، والصعود إلى حصن الحمراء، لكنه لم يرغب فى القيام بذلك، قائلاً إنه لا ينبغى له التخلى عنهم وإنه يتعين عليه انتظار عواقب تلك المسألة والمشاركة فى الخطر الجماعى. وهكذا قضى كل أفراد منزله تلك الليلة شاهرين أسلحتهم.

فى نهار يوم آخر نزل كونت تينديّا من الحمراء ومعه عدد لا بأس به من الأفراد، حيث هرع لمساندة رئيس الأساقفة، الذى عهد إليه بالمدينة والمقاتلين الذين كانوا بصحبته – وكان عددهم حوالى مائتى رجل – لكى يسعى على وجه الخصوص لإطفاء ذاك الغضب الشعبى. لكن رغم المساعى الحثيثة التى بذلها استمر الشغب دون أن يتمكن من تهدئته طيلة عشرة أيام، حاول خلالها المطرانان والكونت – كل من جانبه – بقدر كبير من الحذر والفطنة، سالكين كل السبل الممكنة لتهدئة أولئك الأناس الهمجيين. فاستدعوا الفقهاء والمواطنين البارزين فى المدينة، وأفهموهم الخطأ الذى اقترفوه عند قيامهم بالثورة على ملوك بكل هذا القدر من السطوة، والحسرة التى جلبوها على أنفسهم، والعقاب الذى سوف يلاقوه إذا ما وصل أهل أندلوثيا قبل أن

يهدئوا من روعهم. بيد أنهم أضفوا حجة على ما قاموا به، زاعمين أن البيّازين لم تثر على صاحبى الجلالة، بل نودًا عن توقيعهما. وأن وزراءهما هم من أشعل الثورة فى الأرض، لما أراداه من نقض معاهدة السلام التى استسلم المسلمون بمقتضاها، وأن كل الأمور ستهدأ إذا ما أبقوهم عليها دون أن يضطهدوهم ويتعسفوا معهم فى شئون دينهم. كان بعضهم يتميز من شدة الحنق، عاقدًا عزمًا لا يلين على التمتع بالحرية إلى الحد الذى دفع بهم إلى عدم الرغبة فى الاستماع إلى صوت العقل؛ وقد أدركوا أنه يوجد ثلاثون مسلم فى مقابل كل مسيحى، وأنهم مزودون جيدًا بالأسلحة التى يدافعون بها عن أنفسهم.

إزاء تلك الثورة العارمة، كانت الأوضاع ستزداد سوءًا لو لم يقم رئيس أساقفة غرناطة – الواثق فى رحمة الرب أكثر من بطش الأسلحة – بإخمادها بعمل بطولى. فرغم أن المسلمين لم يودوا الاستماع إلى كونت تينديًا أو استقبال الدرع الذى أرسله إليهم فى بادرة سلام، فرجموه وأساءوا معاملة حامل الدرع الذى كُلِفَ بتلك المهمة؛ وهو الأمر الذى يدلل على شعورهم بالسخط الشديد. رغم ذلك، اصطحب رئيس الأساقفة معه قسيسًا واحدًا يحمل صليبه فى المقدمة، ونفرًا من الخدم الراجلين العزل، وتوجه ليقف بين المسلمين فى ميدان باب البنود –الذى كانوا قد تجمعوا فيه – بمحيَّاه الحسن ووجهه السمح، كما كان حاله عندما كان يذهب لوعظهم حول شئون العقيدة. انظروا إلى القوة التى تولدها الفضيلة والزهد!. كانت تلك هى الصورة التى رآها المسلمون فأنستهم الحنق والغيظ اللذين كانا يعتملان بداخلهم، وأسرعوا إليه فى تواضع وأعطوه الأمان، وقاموا بتقبيل تنورة ملابسه كما جرت عادتهم فى وقت السلم. حضر كونت تينديًا فى رفقة جنوده المسلحين فيما بعد، وخلع عن رأسه قلنسوة قرمزية كان يعتمرها وألقاها وسط المسلمين، حتى يدركوا أنه قدم من أجل السلام. فقام أولئك بالتقاطها وقبلوها، ثم منحوه إياها من جديد، وهكذا سلَّمَ هؤلاء وأولئك.

قضى كل من رئيس الأساقفة والكونت مدة طويلة فى الميدان، يعاتبونهم ويرجونهم أن يتخلوا عن الأسلحة. كما وعدوهم ألا تنالهم أى عقوبة وألا يعتبروا

جميعًا مذنبين، وأنهم سيطلبون لهم العفو والسماح لدى صاحبى الجلالة؛ حيث يجب أن يدرك الكل أنهم قاموا بالثورة من أجل المحافظة على شرف توقيعهما الملكى، وليس من أجل إحداث أمر جديد، وعلاوةً على ذلك فسوف يحفظون لهم عهودهم. وقد قام الكونت بعمل جدير باسمه حقًا، حتى يبعث فيهم الطمأنينة أكثر، حيث اصطحب زوجه الكونتيسة وأولاده الصغار، وأودعهم كرهائن أحد منازل البيازين الكائنة إلى جانب المسجد الكبير. وهكذا عم الهدوء المدينة، وهو ما أسهم فيه أيضًا من جانب المسلمين واحد من قضاتهم يدعى سيدى ثيبونة Cidi Ceibona، وهو رجل حسن الإدراك يتمتع باحترام كبير بين أولئك الناس، وقد وعد بتسليم المتورطين فى مقتل المأمور إلى القائمين على شئون العدالة حتى ينالوا جزاءهم. وقد وفى، حيث أمر بإلقاء القبض عليهم، ثم قام بوضعهم بين أيدى الأب كالديرون Calderón – قاضى غرناطة – الذى أصدر حكمه بشنق أربعة منهم فى شارع بيرو، وأطلق سراح الكثيرين غيرهم من أجل إرساء السلام. وهكذا تخلى المسلمون عن حمل الأسلحة وعادوا إلى مزاولة أعمالهم.

الفصل السادس والعشرون

كيف غضب الملك الكاثوليكى على رئيس أساقفة طليطلة عندما عرف سبب ثورة المسلمين، وكيف أمره بمتابعة عملية التنصير بعد الاستماع إليه.

الشيطان، عدو الجنس البشرى، الذى طالما سهر على تخريب الأرواح، ومطاردة من يحاولون تخليصها لعبادة خالقها، كان سيعطل العمل الصالح الذى بدأ بالفعل، ويُفْقِد رئيس أساقفة طليطلة حظوته لدى الملك والملكة، ويوقعه فى الزلل معهما لو لم يسانده الرب ويقف إلى جواره. ذكرنا فى الفصل السابق أن ثورة البيّازين دامت طوال عشرة أيام. كتب رئيس أساقفة طليطلة فى ثالث أيام قيام المسلمين بالثورة رسالة إلى صاحبى الجلالة، اللذين كانا موجودين فى مدينة إشبيلية، ليقص عليهما ما حدث. وبعد أن طوى الرسالة ليبعثها مع رسول من الرجال ذوى الهمة العالية، عرض مواطن يدعى ثيسنيروس Cisneros أن يمنحه عبدًا كناريًا يسير عشرين فرسخًا فى اليوم، وإذا توجب الأمر فإنه سيقطع المسافة إلى إشبيلية فى أقل من يومين. وقد سَهُلَ إقناع رئيس الأساقفة بتصديقه، فلمّا أحضر العبد الكنارى أمامه كلّفه أن يبذل قصارى جهده ويسير ليلاً ونهارًا ليذهب إلى إشبيلية ويسلم تلك الرسالة إلى يد الملكة الكاثوليكية أو أمين السر الماثان Almazan. وقد غادر العبد غرناطة فيما بعد عقب وعده إياه أن يفى بما أُمِرَ به. لكن كان ذلك العبد امرؤ شريرًا وخسيسًا، قرر أن يثمل فى الطريق، فكان يمشى ببطء شديد حتى أتى إشبيلية فى خمسة أيام. خلال تلك الفترة كان صاحبا الجلالة قد تلقيا تحذيرات أخرى، وعندما لم يجد الملك الكاثوليكى رسالة

من رئيس أساقفة طليطلة أدرك أنه المسبب لذاك الخطر الجسيم وألقى عليه باللوم. كما أنه غضب على الملكة، قائلاً إنها كانت الدافع وراء إحضار ذلك الرجل إلى غرناطة، وإنه أثار فيها القلاقل وعرّض المملكة التى تكلف فتحها الكثير والكثير إلى الخطر. حتى الملكة كادت أن تصدقه، لمّا لم تر رسالة من رئيس الأساقفة، وأمرت أمين السر الماثان أن يكاتبه ويعزو إليه هذا الإهمال الجسيم، ويخبره أن عليه أن يبعث بيانًا بما حدث على وجه السرعة.

كان رئيس الأساقفة هادىء البال إلى حد كبير، ظنًا منه أن رسائله قد وصلت فى أوانها. فلما رأى ما كتبه إليه أمين السر ألماثان بعث برفيقه الكاهن فرانثيسكو رويث Francisco Ruiz لإرضاء صاحبى الجلالة، وذلك حتى يخبرهما بكل ما حدث، وعرض أن يقابلهما هو بنفسه لاحقًا ليروى تفاصيل الأمر. وقد قص عليهما ذلك القسيس كل ما وقع فى غرناطة، وبهذه الطريقة جعلهما يتفهمان الأمر، ويفقدان بعضًا من مشاعر الغضب الكامنة لديهما، ولكن وصول رئيس الأساقفة ذاته أشفى غليلهما أكثر. حيث أصلح الأمور كلها بفصاحته البليغة ورصانته، وأوضح لهما أن ما يفعله وما قام بفعله هو من أجل خدمة الرب وليس لهدف آخر؛ واعتذر إليهما بكلمات حسنة حتى بات الملكان راضيين وأضحت مكانته عندهما أعظم.

فلما رأى تلك الفرصة الطيبة سانحة فى الوقت الحاضر، نصحهما ألا ينفضا أيديهما عن مهمة تنصير المسلمين التى بدأت بالفعل. وقال إن المسلمين بناءً على تمردهم يستحقون إما عقوبة الموت أو فقد الممتلكات، وإن العفو الذى منح لهم كان مشروطًا باعتناقهم المسيحية أو مغادرتهم للبلاد. وقد استحسن الملكان الكاثوليكيان تلك النصيحة، رغم أن قرارهما تأخر ما يربو على ثمانية أشهر. وقد حاول أهالى البيّازين خلال تلك المهلة بذل مساعى هائلة لإعاقته. كما أرسلوا إلى سلطان مصر يشكون له أن القوم يريدون إجبارهم على أن يصبحوا مسيحيين قسراً، ويتوسلون إليه أن يقف إلى جوارهم، ويبعث سفيره إلى إسبانيا ليبين لهم أنه سيعتمد

الوسيلة عينها مع المسيحيين الموجودين في مملكته، مجبراً إياهم على التحول إلى الإسلام(٦٤) . وقد أرسل السلطان سفراءه إلى الملكين الكاثوليكيين قائلاً إنه لن يقبل باستخدام القوة مع المسلمين المستسلمين لحملهم على الدخول في المسيحية. وإنه إذا ما تم ذلك الأمر في إسبانيا، فإنه سيقابله بالمثل في كل أرجاء آسيا(٦٥) مع المسيحيين من رعايا مملكته.

أحسن الملكان استقبال السفراء للغاية، وأجاباهما بأنهما لا يسعيان إلى إجبار المسلمين على التحول إلى مسيحيين، وأنهما لا يريدان وجود مسلمين في ممالكهم، نظراً لقلة الاطمئنان إلى ولائهم. وأن من يترك ديانته إلى المسيحية طواعيةً سينال كل خير، ومن يود الذهاب إلى بلاد المغرب فسيُسْمَح له بذلك، ويُؤذَن له في بيع أملاكه ومتاعه وأصوله الثابتة، وسيحملاهم في أمان تام إلى الموانئ التي يريدون قصدها. علاوةً على ذلك، فقد أرسلوا بدرو مارتير Pedro Mártir - الكاهن الميلاني، والرجل المثقف الذي يعيش حياة ناصعة – والذي كان أول رئيس دير لكاتدرائية غرناطة، حتى يحاول إفهام السلطان ما تنطوي عليه تلك الواقعة بعينها، والبواعث التي دفعت بهما للقيام بما يفعلانه. وقد توجهَ ذلك الأخير إلى مصر Egipto وفارس Persia، حاملاً معه شهادات من قادة البقاع الساحلية في بلاد المغرب التي يؤكدون فيها أن المسئولين عن شئون المسلمين في إسبانيا – الذين يقومون بنقلهم – ينزلونهم إلى الأرض في سلام كامل، ومعهم نساؤهم وأولادهم وعائلاتهم، دون أن يضايقوهم أو يسيئوا معاملتهم. فلطالما أمر أصحاب الجلالة العمد والمأمورين المكلفين بمصاحبة المسلمين أن يأخذوا شهادة من المكان الذي أودعوهم به تقضي أنهم قد قاموا بتنفيذ مأموريتهم. عندما

(٦٤) لم تكن تلك نصيحة الموريسكيين، بل كانت فحوى رسالة السلطان المملوكي إلى فيرناندو الكاثوليكي. الجدير بالذكر إن فقهاء مصر عارضوا رغبة السلطان المملوكي، وقالوا إنه لا يمكن تحويل المسيحيين إلى الإسلام قسراً، إذ لا إكراه في الدين. (المراجع).

(٦٥) ربما يقصد الشام. (المراجع).

فطن مسلمو مملكة غرناطة إلى قلة جدوى مساعيهم، انتقل العديد منهم إلى بلاد المغرب، ومن لم يشاءوا مغادرة البلاد اتفقوا أن يضحوا مسيحيين. وقد أجرى مراسم ذلك التنصير أسقف غرناطة المبارك، مانحًا إياهم العماد المقدس دون الاستعانة بكتاب تعليم أصول المسيحية، أو إرشادهم أولاً إلى شئون العقيدة؛ حيث جاءت حشود ضخمة لتتنصر، وكانت الحاجة ماسة إلى العجلة، حتى لم تفسح مجالاً لإمكانية تعليمهم. بيد أن الهمة العالية وحرص المطارنة كانا يمكن أن يعوّضا ذلك الخلل، لو أراد الموريسكيون نسيان الطقوس والثياب والعادات الخاصة بطائفتهم، وأن يمسوا مسيحيين خالصين فى الجوهر والمخبر، وهو الأمر الذى لم يتسن تحقيقه معهم قط.

الفصل السابع والعشرون

كيف مهدَّ الملكان الكاثوليكيان السبيل ببعض التغييرات التى جرت فى مدينة غرناطة حيال تنصير المسلمين.

بعد أن سرى فى أرجاء مملكة غرناطة خبر تحول المسلمين فى مدينة غرناطة إلى المسيحية، شرع أهالى الجبال والبشرات فى الثورة، استجابةً لنصيحة بعض الرجال البارزين فى البيَّازين، ممن وجدوا أنفسهم مقهورين وأرادوا أن يفعلوا فعلتهم مع تعريض غيرهم إلى عقوبة الموت. خلال ذلك العام والعام الذى تلاه - وكان موافقًا ١٥٠٠- نشبت الثورة فى بعض المواقع القائلة بأن بنود المعاهدة التى استسلموا بناءً عليها قد تم خرقها، وأنهم لا يتحملون وزر الثورة التى قامت آنفًا، وهم ليسوا مجبرين على المعاناة بسبب ما أقدم عليه الآخرون لتخليص حسابهم. عندما وصل خبر تلك الفتنة إلى إشبيلية غادرها الملكان الكاثوليكيان متوجهان صوب غرناطة فى السابع والعشرين من يناير، وأمرا كلاً من كونت تينديًا وغونثالو إيرنانديث دى كوردوبا بمهاجمة قلعة غويخارGüejar، التى تجمَّع بها بعض المسلمين الثائرين. وقد انطلقا باتجاهها وظفرا بها ودمراها، ولكن ليس دونما خسائر كبيرة فى أرواح حاملى الأسلحة الذين كانوا بصحبتهما؛ لأن أعداء الرب حفروا الأراضى المحيطة بالموقع، ثم حولوا إليها كل مياه السواقى، فأغرقوا الحقول بالمياه إلى حد غمر الخيول حتى أحزمة السَّرج، فلما ألفوا المسيحيين قد أعيقوا فى تلك الأماكن المردومة، وثب عليهم المشاة الطلقاء فى الدروب والحدود التى خبروها من كل صوب وحدب،

فأصابوهم وأردوهم قتلى. أما كونت ليرين الذى تقع أملاكه فى مملكة نابارًا Navarra، فقد أغار على أندرش؛ لأن مسلمى هذه البلدة كانوا قد تحصنوا فى قلعة القصور، وعندما فتحها بقوة السلاح فجَّر بالبارود المسجد الكبير الذى تجمعت فيه نسوة وأطفال تلك البقاع.

اقتحم الملك فيرناندو وادى ليكرين، وحاصر كلاً من القلعة ولانخارون، واستولى عليهما فى يوم الجمعة الموافق السابع من شهر مارس. وكان برفقته قائد دونثيليس los Donceles، وكونت ثيفونتيس، والقائد العام لرهبانية قلعة رباح العسكرية، وغونثالو ميخيّا Gonzalo Mejía سيد سانكتوفيميا Sanctofimia - وكثيرون غيرهم من السادة والفرسان. بات هناك مسلم زنجى نصبّه الثوار قائدًا عليهم، ولم يكن يريد أن يقع تحت رحمة المسيحيين أو يتخلى عن الموت مسلمًا، فألقى بنفسه من أعلى البرج، وتمزق جسده إلى أشلاء، حينما أبصر الآخرين يستسلمون.

لمّا قُمِعَ المتمردون بسرعة لا تصدق ومُهدَت الأمور فى البشرات، عاد الملك إلى إشبيلية ليحضر معه الملكة، ويتوجها إلى غرناطة فى يوم السبت الموافق الثالث والعشرين من شهر يوليو. فى غضون شهور أغسطس، وسبتمبر، وأكتوبر تنصر كل مسلمى البشرات ومدن ألمرية وباثا ووادى آش، وغيرها العديد من قرى وبلدان مملكة غرناطة. وفى ذاك الوقت ثار مسلمو بيليفيكى Belefique، وفى العام التالى الموافق ١٥٠١ - أثناء بدايته - تم اعتقالهم وإعدامهم كجزاء عادل، كما أُسِرَت النساء.

أما أهالى نيخار وغيبيخار Güevéjar، فقد استسلموا وأضحوا عبيدًا، ما عدا الأطفال إذا كان الطفل يبلغ أحد عشر ربيعًا فما أقل، حيث تم تنصيرهم. فى العام ذاته اندلعت الثورة فى عدة قرى مسلمة فى منطقة رندة الجبلية، وجبال بيرميخا وبيّا لوينغا وقد بعث صاحبا الجلالة إليهم كونت أورينيا Ureña وكذلك السيد ألونسو دى أغيلار، بيد أن الأمور لم تسر على ما يرام. حيث أغاروا عليهم فى مكان يُدعَى كالالوى

Calalui يقع على مقربة من غينالواثيل[٦٦] Ginalguacil، وذلك فى ليلة الثلاثاء الموافق السادس عشر من شهر مارس وأردوا الغالبية العظمى من بنى جلدتنا قتلى، كما مات أيضًا السيد ألونسو دى أغيلار على يد مسلم اسمه الفيرى el Feri من أهالى بن استيبار Ben Estepar. وقد هرب ولده، السيد بدرو، وأسنانه مهشمة من جراء ضربة حجر؛ وكذلك فر كونت أورينيا والباقون بصعوبة بالغة.

على إثر تلك الهزيمة كان لزامًا على الملك الكاثوليكى ذاته أن يخرج من غرناطة، وقد نجم عن وجوده إذعان الأرض بأسرها. حيث سمح لمن لا يرغبون فى التنصر بالذهاب إلى بلاد المغرب ، بينما تنصر باقى مواطنى تلك الرقعة وسائر المملكة. وقد تنصر أيضاً فى غضون أيام قلائل المسلمون المدجنون الذين يعيشون فى آبلة وتورو Toro وسمورة Zamora، وأماكن أخرى من قشتالة لم تكن قد غيرت ديانتها حتى ذلك الحين.

---

(٦٦) هى بنالغواثيل (أو بنى الوزير)، ولعله خطأ مطبعى. (المراجع)